اليوم الثالث حتّى ينفر فى اليوم الثّالث فلا إثم عليه فى تأخّره[١] عن ابن عبّاس : فمن تعجّل فى يومين بعد يوم النّحر فلا إثم عليه . يقول : من نفر من منى فى يومين بعد النّحر فلا إثم عليه ، ومن تأخّر فلا إثم عليه فى تأخّره فلا حرج عليه[٢] .

الحشر : ضمّ المفترق وسوقه[٣] وإخراج الجماعة عن مقرّهم وإزعاجهم عنه إلى الحرب ونحوها ، ولا يقال الحشر إلاّ فى الجماعة[٤] .

نصادف فى الآية الكريمة ابتداءً الأمر بذكر الله تعالى ، وهذه هى المرّة الرّابعة الّتى ينوّه فيها بذكر الله تعالى فى آيات الحجّ الكريمات : ﴿ واذكروا الله فى أيّامٍ معدودات ﴾ ومن البيّن أنّ الأمر بذكر الله تعالى هنا يقترن بالأيّام المعدودات أيّام منى أيّام التّشريق الثّلاثة بعد يوم النّحر ، وهى أيّام الحادى عشر والثّانى عشر والثّالث عشر . وكأنّ تحديد الأمر بذكر الله تعالى هنا بالأيّام المعدودات قادرٌ على ربط الأوامر الأخرى بذكر الله تعالى بأطرٍ زمنيّة لا تتعارض مع الأوامر فى القرآن الكريم بذكر الله ذكراً كثيراً فى كلّ الأوقات والأحوال . وكأنّ القول : ﴿ فإذا أفضتم من عرفاتٍ فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم ﴾ فيه الأمر بذكر الله تعالى عند المشعر الحرام بالمزدلفة ، وهو ذكرٌ لله تعالى يعتبر امتداداً لذكره تعالى فى عرفات وعند الإفاضة منها ، وفيه كذلك الأمر المطلق بذكر الله تعالى الّذى هدانا لهذا وما كنّا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، ويعتبر هذا الذّكر بدوره امتداداً لذكر الله تعالى عند المشعر الحرام بالمزدلفة ، وبخاصّةٍ بعد صلاة الفجر من يوم النّحر . وفى يوم النّحر هذا يقضى الحاجّ مناسكه فى العادة ، وينبغى أن يقترن بذلك ويتلوه ذكر الله تعالى ، وبخاصّةٍ فى الأماكن والأوقات الّتى اعتاد العرب فيها قبل الإسلام أن يذكروا آباءهم ويشيدوا فيها بمآثرهم ويفخروا بمحامدهم عند الجمرة وبين المسجد والجبل فى أثناء ليالى منى وأيّامها وبعد الانتهاء من رمى الجمار . إنّ هذه اللّيالى والأيّام ينبغى أن تملأ بالّذى هو خير ، ألا وهو ذكر الله تعالى الّذى جاء الأمر به للمرّة الرّابعة مقروناً هذه

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٢/١٧٨
(٢) تفسير الطّبرىّ ٢/١٧٨
(٣) البحر المحيط ٢/١٠٨
(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانىّ ١١٩

المرّة بالأيّام ، وهى أيّام منى بعد يوم النّحر : ﴿ واذكروا الله فى أيّامٍ معدودات ﴾ ويدخل فى الأيّام اللّيالى الّتى ينبغى أن تملأ جميعها بذكر الله تعالى .

وإذا كانت أيّام منى المعدودات ، بعد يوم النّحر ، ثلاثة أمر الله سبحانه وتعالى الحاجّ بخاصّة أن يذكره فيها ذكراً كثيراً ، فإنّ رحمة الله تعالى الّتى وسعت كلّ شيءٍ قد شملت الحاجّ الّذى قد تقتضيه ظروفه التّعجّل فى يومين بأن ينفر من منى فى اليوم الثّانى عشر ثانى أيّام التّشريق . إنّ حكم ذكر الله تعالى قائم لتأتّى ذكر الله تعالى فى كلّ الأحوال ، فعلى المتعجّل والمتأخّر أن يذكر الله تعالى ، وتتجلّى رحمة الله تعالى الّتى وسعت كلّ شيءٍ فى رفع الإثم عن كلٍّ من الحاجّ المتعجّل فى يومين والمتأخر فى ثلاثة أيّام شريطة تقوى المتعجّل والمتأخّر الله سبحانه وتعالى فى سرّه وعلانيته ﴿ فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخّر فلا إثم عليه لمن اتّقى ﴾ .

أما متى ينفر الحاجّ من منى ومتى يرجع إلى مكّة ؟ فإنّ الحاجّ يرجع من منى إلى مكّة قبل غروب الشّمس ، من اليوم الثّانى عشر بعد الرّمى عند الأئمّة الثّلاثة . وعند الأحناف : يرجع إلى مكّة ما لم يطلع الفجر من اليوم الثّالث عشر من ذى الحجّة . لكن يكره النّفر بعد الغروب لمخالفة السّنّة ولا شيء عليه[١] .

وبشأن جملتى تعجّل وتأخّر يقول أبو حيّان[٢] : « وفى هاتين الجملتين الشّرطيّتين من علم البديع الطّباق فى قوله : فمن تعجّل ومن تأخّر . والطّباق ذكر الشّيء وضدّه كقوله : وأنّه هو أضحك وأبكى . وهو هنا طباقٌ غريب لأنّه ذكر تعجّل مطابق تأخّر . وفى الحقيقة مطابق تعجّل تأنّى ومطابق تأخّر تقدّم . فعبّر فى تعجّل بالملزوم عن اللاّزم وعبّر فى تأخّر باللاّزم عن الملزوم » .

وبما أنّ التّقوى صفةٌ ينبغى أن تلازم المؤمن فى كلّ أوقاته وأحواله ، خاصّةً بعد أن منّ الله سبحانه وتعالى عليه بأداء الرّكن الخامس من أركان الإسلام وقد قال ﷺ : من حجّ هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه . وقال ﷺ : تابعوا

---

(١) فقه السّنّة ١/٦٢٢

(٢) البحر المحيط ٢/١٢

بين الحجّ والعمرة فإنّهما ينفيان الذّنوب كما ينفى الكير خبث الحديد والذّهب والفضّة .

وقال ﷺ : تابعوا بين الحجّ والعمرة فإنّهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفى الكير خبث الحديد والذّهب والفضة وليس للحجّة المبرورة ثوابٌ دون الجنّة[١] لذا كان عقب نفى الإثم عمّن تعجّل فى يومين أو تأخّر فى ثلاثة أيّام شريطة تقوى الحاجّ الله تعالى ، أمرٌ بتقوى الله وأمرٌ بأن يعلم عباد الله تعالى من الحجّاج وغيرهم أنّهم إلى الله تعالى يحشرون : ﴿ واتّقوا الله واعلموا أنّكم إليه تحشرون ﴾ .

وحينما نتبيّن أنّ الآية الكريمة الّتى أمرت بإتمام الحجّ والعمرة قد ختمت بالأمر بتقوى الله تعالى : ﴿ واتّقوا الله واعلموا أنّ الله شديد العقاب ﴾ وأنّ الآية الكريمة التّالية الّتى خلصت للحجّ قد أمرت بالتّقوى وحثّت عليها : ﴿ وتزوّدوا فإنّ خير الزّاد التّقوى واتّقون يا أولى الألباب ﴾ نستطيع أن نتبيّن مدى عناية الآيات الكريمات بالتّقوى حتّى إنّها بدئت وانتهت بالحثّ على التّقوى والأمر بها .

وإنّ الحجّ الّذى يقترن به إخراج الجماعة وحشرها على وجه الضّبط والسّرعة ، وتلك هى مقوّمات الحشر ، فثمّة اتّجاه جمعىّ إلى منى فعرفات ، فإفاضة من عرفات إلى المزدلفة فمنى ، فنفرٌ من منى إلى مكّة ، إنّ الحجّ الّذى يقترن به هذا النّوع من الحشر إضافةً إلى تفرّق العباد فى البلاد بعد أداء هذا الرّكن ، تختم آياته الكريمات بتنبيه عباد الله تعالى وإعلامهم بأنّهم يوم القيامة إلى ربّهم يحشرون ، يجمعون ويساقون ويحاسبون ، يثابون أو يعاقبون .

وهكذا نتبيّن فى القول : « واعلموا أنّكم إليه تحشرون » تمشّى هذه الخاتمة مع روح الحجّ وجوهره لبّه وخالصه . فثمّة انتقالٌ دائمٌ ورحيل ، شدٌّ للرّحال وتحويل ، طاعةٌ مطلقة وإذعان ، خضوعٌ تامٌّ وامتثال ، لا مكان لهوى فردٍ ولا لرغبة جماعة ، الكلّ ينطلق من منى بعد طلوع شمس يوم عرفة وإن حلا المكان بمنى وطاب المقام ، والكلّ ينطلق من عرفات بعد غروب شمس ذلك اليوم المجموع له النّاس المشهود وإن حلا المكان وطاب المقام امتثالاً لتعاليم خير البريّة واتّباعاً لسنّة أشرف الأنام . وقل الشّىء نفسه

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٢/١٨٠

فى الإفاضة من المزدلفة والنّفر من منى . إنّ الحاجّ منذ أن ينوى الحجّ ويغادر بلده إلى أن يعود إلى بلده وهو يتحوّل من حشرٍ إلى حشر ، وبخاصّة حينما يحشر الحجيج فى صعيد عرفات وهم فى أشكالهم وأحوالهم سواسية كأسنان المشط فلا فرق بين رئيسٍ ومرءوس ، غنىٍّ وصعلوك ، ممّا يعتبر صورةً مصغرة للحشر الأكبر إلى الله تعالى يوم القيامة . إنّ كلّ هذه الملابسات من الحشر يعمّقها ما تختم به آخر آيات الحجّ الكريمة : ﴿ واتّقوا الله واعلموا أنّكم إليه تحشرون ﴾ .

وإذا كانت الآية الكريمة الأخيرة قد نبّهت إلى النّفر من منى إلى مكّة ممّا يعتبر خاتمةً للحجّ فإنّ أولى الآيات الكريمات الخالصة للحجّ قد ابتدأت بذكر أشهر الحجّ أى بدايته . وبين البداية والنّهاية يكون حديث الآيات الكريمات عن أعمال الحجّ ، الرّكن الخامس من أركان الإسلام .

فـوائد :

١ ــ التّرتيب فى رمى الجِمار واجب ، فلا يجوز أن يشرع فى رمى جمرة حتّى يكمل رمى الجمرة الأولى كركعات الصّلاة . هذا هو المشهور . وقيل : ليس التّرتيب بواجبٍ فى صّحة الرّمى ، بل إذا كان الرّمى كلّه فى وقت الأداء أجزأه[١] والثّابت عن رسول الله ﷺ أنّه بدأ رمى الجمرة الأولى الّتى تلى منى ، ثمّ الجمرة الوسطى الّتى تليها ، ثمّ رمى جمرة العقبة . وثبت عنه أنّه قال : خذوا عنّى مناسككم[٢] والمختار عند الأحناف أنّ التّرتيب سنّة[٣] .

٢ ــ إذا مضت أيّام الرّمى فلا رمى . فإن ذكر ما بعد يصدر وهو بمكّة أو بعد ما يخرج منها فعليه الهَدْى . وسواءٌ ترك الجمار كلّها أو جمرة منها أو حصاةً من جمرة حتّى خرجت أيّام مِنًى فعليه دم[٤] .

٣ ــ سمّيت مِنًى مِنًى لما يُمْنى فيها من الدّماء أى يراق[٥] .

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٨١٤
(٢) فقه السّنّة ص ٦٢١
(٣) فقه السّنّة ص ٦٢١
(٤) تفسير القرطبى ص ٨١٤
(٥) تفسير القرطبىّ ص ٨١٥

٤ ــ ثبت أنّ رسول الله ﷺ رمى جمرة العقبة يوم النّحر على راحلته . واستحبّ مالك وغيره أن يكون الّذى يرميها راكباً[١] .

٥ ــ سنّة الذِّكر فى رمى الجمار التّكبير دون غيره من الذّكر[٢] .

٦ ــ حكم الجمار أن تكون طاهرةً غير نجسة ولا ممّا رُمِىَ به . واستحبّ أهل العلم أخذها من المزدلفة لا مِنْ حصى المسجد . ولا تغسل عند الجمهور[٣] قال ابن المنذر : يكره أن يرمِي بما قد رُمِى به ، ويُجْزئ إن رمى به . وبالحصى رمى رسول الله ﷺ[٤] أى الحصى الصّغار مثل حبّ الباقلاّء، وهو الفول[٥] .

(١) تفسير القرطبىّ ص ٨١٨
(٢) تفسير القرطبىّ ص ٨١٨
(٣) تفسير القرطبىّ ص ٨١٨ و ٨١٩
(٤) تفسير القرطبىّ ص ٨١٩
(٥) فقه السّنّة ١/٦١٦

[١٣]

مؤمنون ومنافقون وكافرون

الآيات ٢٠٤ ــ ٢١٤

وَمِنَ
ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ
عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ
فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ
لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ
بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۚ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ
ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ
رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ
فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ
إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ
مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ
﴿٢٠٩﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ
وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٢١٠﴾
سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةم بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ
ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ
كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ
ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ
﴿٢١٢﴾

كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ
وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ
فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ
مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ
صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا
يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ
وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ
أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾

إنّه على الرّغم من حديث السّورة الكريمة بطريقةٍ أو بأخرى عن أركان الإسلام الخمسة فلا زال النّاس فيهم المؤمنون والكافرون والمنافقون وهى الفئات الّتى نصّت عليها السّورة الكريمة فى أوّلها . ويبدأ الحديث هنا بالمنافق الّذى يعجبك قوله فى الحياة الدّنيا الّتى يحبّها بينما يخالف قولَه المعلن فعلُه السّيّىء بالإفساد فى الأرض وإهلاك الحرث والنّسل . وفى المقابل هنالك المؤمنون الّذين يبيعون أنفسهم ابتغاء مرضاة الله تعالى ، وهؤلاء يؤمرون بقبول الإسلام كاملاً كى يقوى إيمانهم ويرسخ يقينهم . ويعرّج السيّاق على بنى إسرائيل الّذين بدّلوا نعمة الله تعالى كفراً ، وقد كانوا منطلق الحديث عن جنس الكفّار الّذين زُيّن لهم الحياة الدّنيا وعن المنعطف الّذى افترق عنده النّاس مؤمنين وكفّاراً بعد أن كان النّاس أمّةً واحدةً مؤمنة فاقتضى ذلك إرسال رسولٍ . وكلّما تكرّر الانحراف عن الصّراط المستقيم جدّت الحاجة لإرسال رسول إلى أن بعث الله تعالى خاتم الأنبياء والمرسلين فى الأمّيّين الّذين كانوا نواة الأمة المسلمة لله ربّ العالمين الّتى ينبّهها السّياق إلى البأساء والضّرّاء والزّلازل المعنويّة الّتى أصابت الأمم المسلمة السّابقة ففى ذلك العزاء والتّسلية لما تصادف من عناء ومشقّة وفى ذلك تثبيت الفؤاد للمصطفى ﷺ ولأمّته المسلمة لله ربّ العالمين .

الآيــة رقــم (٢٠٤)

قال تعالى : ﴿ ومن النّاس من يُعْجِبُكَ قولُهُ فى الحياة الدّنيا ويُشْهِدُ الله على ما فى قلبه وهو ألدّ الخصام ﴾ .

من يعجبك : الإعجاب إفعالٌ من العجب ، وأصله لما لم يكن مثله . قاله المفضّل . وهو الاستحسان للشّىء والميل إليه والتّعظيم . تقول : أعجبنى زيد . والهمزة فيه للتّعدّى . وقال الرّاغب : العجب حيرةٌ تعرض للإنسان بسبب الشّىء وليس هو شيئاً له فى ذاته

حالة ، بل هو بحسب الإضافات إلى من يعرف السَّبب ومن لا يعرفه . وحقيقة أعجبنى كذا ، أى ظهر لى ظهوراً لم أعرف سببه . انتهى كلامه[١] .

قوله عن مجاهد : علانيته فى الدّنيا[٢] .

فى الحياة الدّنيا : يقول الزّمخشرىّ[٣] : : « فإن قلت : بم يتعلّق قوله : فى الحياة الدّنيا ؟ قلت : بالقول ، أى يعجبك ما يقوله فى معنى الدّنيا ، لأنّ ادّعاء المحبّة بالباطل يطلب به حظاً من حظوظ الدّنيا ولا يريد به الآخرة كما تراد بالإيمان الحقيقىّ والمحبّة الصادّقة للرّسول . فكلامه إذن فى الدّنيا لا فى الآخرة . ويجوز أن يتعلّق بيعجبك ، أى قوله حلوٌ فصيحٌ فى الدّنيا فهو يعجبك ولا يعجبك فى الآخرة لما يرهقه فى الموقف من الحُبْسة[٤] واللُّكنة أو لأنّه لا يؤذن له فى الكلام ، فلا يتكلّم حتّى يعجبك كلامه » .

ويشهد الله على ما فى قلبه : قرأ الجمهور بضمّ الياء وكسر الهاء ونصب الجلالة من أشهد[٥] والمعنى على قراءة الجمهور وتفسير الجمهور أنّه يحلف بالله ويشهده أنّه صادقٌ وقائلٌ حقّاً وأنّه محبٌّ فى الرّسول والإسلام[٦] بمعنى أنّ المنافق الّذى يعجب رسول الله ﷺ قولهُ يستشهد الله على ما فى قلبه أنّ قوله موافقٌ اعتقاده وأنّه مؤمنٌ بالله ورسوله وهو كاذب[٧] .

وهو ألدّ الخصام : اللاّم والدّال أصلان صحيحان ، أحدهما يدلّ على خصامٍ ، والآخر يدل على ناحيةٍ وجانب[٨] واللَّدَدُ شدّة الخصومة[٩] يقال : لددت تلدّ لدداً

---

(١) البحر المحيط ١٠٨/٢ وانظر مفردات الرّاغب الأصفهانى ص ٣٢٢ فقد أجاد أبو حيّان التّعبير عن فحوى ما أراد الرّاغب تبيينه .

(٢) تفسير الطّبرىّ ١٨٢/٢ (٣) الكشّاف ٢٦٧/١

(٤) الحُبسة ، بضمّ الحاء : تعذّر الكلام . واللُّكنة ، بضمّ اللاّم : عجمةٌ وعِىٌّ فى اللّسان .

(٥) البحر المحيط ١١٤/٢ وتفسير ابن كثير ٢٤٦/١ وانظر الطّبرىّ ١٨٣/٢

(٦) البحر المحيط ١١٤/٢ وانظر الكشّاف ٢٦٧/١ وتفسير ابن كثير ٢٤٦/١ وتفسير الطبرىّ ١٨٣/٢

(٧) تفسير الطّبرىّ ١٨٣/٢ (٨) معجم مقاييس اللّغة « لد » ٢٠٣/٥

(٩) معجم مقاييس اللّغة « لد » ٢٠٣/٥ والبحر المحيط ١٠٨/٢

ولدادَة ورجلٌ ألدّ وامرأةٌ لدّاء ورجالٌ ونساءٌ لُدّ . ورجلٌ التدد ويلتدد أيضا ، شديد الخصومة ، وإذا غلب خصمه قيل : لدّه يلُدُّه متعدّياً . واشتقاقه من لديدى العنق ، وهما صفحتاه ، قاله الزّجّاج[١] وجانباه[٢] فالألَدُّ أصْلاً الشّديد اللّدد أى صفحة العنق ، وذلك إذا لم يمكن صرفه عمّا يريده[٣] وقيل اشتقاقه من لديدى الوادى وهما جانباه ، سمّيا بذلك لا عوجاجهما[٤] والألدّ فى اللّغة : الأعوج[٥] .

والخصام فى الآية مصدر خاصم ، قاله الخليل . وقيل : جمع خصم ، قاله الزّجاج ، ككلب وكلاب وصعب وصعاب وضخم وضخام . والمعنى أشدّ المخاصمين خصومةً ، أى هوذ وجدال ، إذا كلّمك وراجعك رأيت لكلامه طلاوة[٦] وباطنه باطل . وهذا يدلّ على أنّ الجدال لا يجوز إلاّ بما ظاهره وباطنه سواء . وفى صحيح مسلم عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ : أنّ أبغض الرّجال إلى الله الألدّ الخَصِم[٧] وباعتبار الخصام مصدراً يكون المعنى : وهو شديد الجدال والعداوة للمسلمين والمخاصمة[٨] ويقول أبو حيان[٩] : « وإن أريد بالخصام المصدر كما قاله الخليل فلابدّ من حذف مصحّح لجريان الخبر على المبتدأ ، إمّا من المبتدأ أى وخصامه ألدّ الخصام . وإمّا من متعلّق الخبر أى وهو ألدّ ذوى الخصام » عن ابن عبّاس : وهو ألدّ الخصام ، أى ذو جدال إذا كلّمك وراجعك[١٠] والخصام مصدر من قول القائل : خاصمت فلاناً خِصاماً ومخاصمة[١١] ويقول القرطبى[١٢] : « وهو ألدّ الخصام ، الألدّ الشّديد الخصومة » .

---

(١) البحر المحيط ١٠٨/٢ (٢) معجم مقاييس اللّغة « لد » ٢٠٣/٥

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانى ص ٤٤٩ وفى تفسير القرطبى ص ٨٢٤ : « أى فى أىّ جانبٍ أخذ من الخصومة غلب » .

(٤) البحر المحيط ١٠٨/٢

(٥) تفسير ابن كثير ٢٤٦/١ وانظر تفسير الطّبرىّ ١٨٢/٢

(٦) طلاوة : بتثليث الطّاء : الحُسْن والبهجة .

(٧) تفسير القرطبىّ ص ٨٢٤ (٨) انظر الكشّاف ٢٦٧/١

(٩) البحر المحيط ١١٤/٢ (١٠) تفسير الطّبرىّ ١٨٣/٢

(١١) تفسير الطّبرىّ ١٨٣/٢ (١٢) تفسير القرطبىّ ص ٨٢٤

فى أثناء آيات الحجّ الكريمة جاء بقصد التّحذير ، الحديث عن الكافرين الّذين يقولون ربّنا آتنا فى الدّنيا فلا يسألون الله تعالى إلاّ حطام الدّنيا الفانى ومتعها الزّائلة بدليل أنّ لفظة حسنة لم تأت فى حقّ هؤلاء النّاس ، وجاء بقصد الحثّ والإغراء ، الحديث عن المؤمنين الّذين يقولون ربّنا آتنا فى الدّنيا حسنةً وفى الآخرة حسنةً وقنا عذاب النّار . وعلى غرار الحديث هنالك عن الكافرين والمؤمنين يجىء الحديث هنا عن المنافقين ، والنّفاق ضربٌ من الكفر ، وعن المؤمنين . والآية الكريمة الّتى نحن بصددها تتحدّث عن المنافقين ، وهى تتمشّى مع ما ثبت فى الصّحيح عن رسول الله ﷺ أنّه قال : آية المنافق ثلاث ، إذا حدّث كذب ، وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر . وقال البخارىّ: حدّثنا قبيصة حدّثنا سفيان عن ابن جريج عن ابن أبى مليكة عن عائشة ترفعه قال : إنّ أبغض الرّجال إلى الله الألدّ الخصم(١)

والآية الكريمة تتحدّث عن ظاهر المنافق أوّلاً ثمّ تقرّر حقيقة باطنه المغاير لذلك الظّاهر المخالف له تماماً ، وتتناول هذا الظّاهر من أحد جوانبه الواضحة بل الشّديدة الوضوح ، وهو جانب القول الّذى يتأتّى تحبيره ويسهل تزيينه وتنميقه ويتيسّر الالتواء به والذّهاب به كلّ وجه . ومع أنّ الخطاب يصحّ أن يتّجه ابتداءً إلى المصطفى ﷺ وأن يقرّر طبيعة فئةٍ من المنافقين معيّنة ، وما أكثر المنافقين آنذاك فى المدينة المنوّرة وما حولها من المناطق نتيجةً حتميّةً لقوّة الإسلام المطّردة النّماء وتذبذب المنافقين وتأرجحهم بين الإيمان الرّاغبين عنه الخائفين مدّه الطّامعين فى نفعه ، وبين الكفر الرّاغبين فيه المراقبين على وجلٍ انحسار مدّه وأفول نجمه وزوال نفعه ، مع أنّ الخطاب يصحّ أن يتّجه ابتداءً إليه ﷺ ويقرّر طبيعة فئةٍ من المنافقين معيّنة ، فإنّ الخطاب وراء ذلك يصحّ أن يتّجه إلى كلّ مسلمٍ لله ربّ العالمين . إنّ المنافق الّذى ينطوى على مكر الثّعلب وغدر الذّئب وخبث الأفعى قادرٌ على أن يبدو فى شكل الحَمَل وداعةً وفى هيئة جلد الأفعى لين ملمس ونعومة مسّ ، على أنّ أفتك إفرازاته من السمّ الزّعاف قادرة على أن ترفل فى غير ثوبها الحقيقىّ وتنساب فى غير شكلها الأصلىّ حينما تتسلّل من بين شفتيه فى هيئة الكلام

(١) تفسير ابن كثير ١/٢٤٦

المعسول واللّفظ المنمّق والمعنى المشذّب المهذّب والدّعاوى الباطلة الكاذبة الّتى لا أوّل لها ولا آخر للدّرجة الّتى يستطيع معها المنافق أن يستحوذ على إعجاب المؤمن الّذى يخاطبه خاصّةً إذا أردف المنافق ذلك المعسول من القول بالإعلان أمام المخاطب أو المخاطبين بأنّ الله تعالى الّذى لا يخفى عليه شيءٌ فى الأرض ولا فى السّماء هو الشّهيد على موافقة قوله لاعتقاده علانيته لسرّه ، وبأنّه إنّما ينطلق فيما يقول من باعث حبّه للإسلام والمسلمين . إنّ كلّ مؤمنٍ يصحّ أن يعجبه قول ذلك المنافق ويستحوذ عليه استحسانه لكلامه ، والمعروف أنّ ربّ العزّة لم يشأ للمصطفى ﷺ ، ومن باب الأولى سواه ، أن يطّلع على دخائل المنافقين ، وقد قال تعالى خطاباً له عليه الصّلاة والسّلام[1] : ﴿ ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ، ولتعرفنّهم فى لحن القول ، والله يعلم أعمالكم ﴾ وإنّما أعلمه الله تعالى بذلك أخيراً وحينما نزلت سورة براءة الفاضحة .

وإنّ ربّ العزّة الّذى لا يخفى عليه شيءٌ فى الأرض ولا فى السّماء ليرشدنا نحن المسلمين إلى وسيلةٍ يصحّ أن يُعْرَف بها المنافقون إضافةً إلى لحن القول وفلتات ألسنتهم الّتى تكشف عمّا تخفيه قلوبهم وتضمره نفوسهم من نوايا سيّئةٍ للإسلام والمسلمين ، وهذه الوسيلة هى اهتمام المنافق ، عن وعيٍ منه وغير وعى ، بجانب الحياة الدّنيا وحرصه على أن ينال حظّه الموفور من زينتها الفانية ونعيمها الزّائل رغم زعمه الحبّ للإسلام والمسلمين وإشهاده الله تعالى على موافقة معتقده لقوله وهو كاذبٌ فى ذلك . قال تعالى : ﴿ ومن النّاس من يعجبك قوله فى الحياة الدّنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألدّ الخصام ﴾ .

إنّ ربّ العزّة الّذى لا يخفى عليه شئٌ فى الأرض ولا فى السّماء يكشف عن حقيقة عداوة المنافق للإسلام والمسلمين ، ويبيّن خبث طويّة ذلك المنافق الّذى يجتهد فى تزويق منطقه بمقدار خبث باطنه . ﴿ وهو ألدّ الخصام ﴾ ونستطيع أن نفهم لفظة الخصام بأنّها جمع خصم ككلبٍ وكلاب ، وبالتّالى يكون المعنى : وذلك المنافق الّذى يحلو منطقة ألدّ المخاصمين للإسلام وأشدّ المبغضين له ، الحاقدين الحانقين عليه ، المتربّصين بالمسلمين

(١) سورة محمّد ٣٠

الدّوائر . وبهذا تتجاوز لفظة « ألدّ » مرحلة شديد مثلاً إلى مرحلة أشدّ ، وبهذا يتقدّم هذا المنافق فى عداوته كلّ المخاصمين للإسلام المبغضين له ، وبهذا تكون لفظة ألدّ قد أخذت من لديدى العنق بمعنى جانبيه وصفحتيه ومن لديدى الوادى بمعنى جانبيه صفة الشّدّة فى الخصام وهى الشدّة المستفادة من العنق الألدّ ، أى الشّديد اللّدد ، الذى لا يمكن صرفه عمّا يريده ، وكأن ألدّ الخصام فى أىّ جانبٍ من الخصومة أخذ فإنه يغلب ، وبهذا تكون لفظة الدّ قد أخذت أيضاً من لديدى الوادى صفة العوج . ومتى كانت صفةٌ سوى صفة العوج سمةً لألدّ الخصام .

وحينما نذهب إلى كون لفظة الخصام جمعاً لخصم ، فذلك معناه أنّ ألدّ الخصام شديد الخصومة ، وبناءً على ذلك ليس هنالك ما يمنع من كون لفظة الخصام مصدراً بمعنى المخاصمة ، وبهذا يكون ألدّ الخصام شديد الخصومة ، بل الأشدّ الخصومة ، كما تبيّن . والله أعلم . والآية الكريمة تأخذ بسببٍ من قوله تعالى[١] : ﴿ زيّن للّذين كفروا الحياة الدّنيا ويسخرون من الّذين آمنوا . والّذين اتّقوا فوقهم يوم القيامة . والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ .

الآيــة رقــم (٢٠٥)

قال تعالى : ﴿ وإذا تولّى سعى فى الأرض ليُفْسِدَ فيها ويُهْلِكَ الحرث والنّسل والله لا يحبّ الفساد ﴾ .

وإذا تولّى : وإذا أدبر وذهب عنك يا محمّد[٢] منصرفاً عنك[٣] وحقيقة التّولّى الانصراف بالبدن ، ثمّ اتّسع فيه حتّى استعمل فيما يرجع عنه من قولٍ وفعل[٤] .

سعى : السّعى فى الأرض المشى بسرعة[٥] يقال : سعى الرّجل يسعى سعياً ، أى

---

(١) سورة البقرة ٢١٢ (٢) تفسير القرطبى ص ٨٢٥

(٣) تفسير الطّبرى ٢/١٨٤ (٤) البحر المحيط ٢/١١٥

(٥) تفسير القرطبىّ ص ٨٢٥ والبحر المحيط ٢/١١٥

عدا . وكذلك إذا عَمِل وكسَب . وفلانٌ يسعى على عياله أى يعمل فى نفعهم[١] وسعى أى بقدميه فقطع الطّريق وأفسدها ، عن ابن عبّاسٍ وغيره[٢] وسعى أى سعى بحيلةٍ وإدارة الدّوائر على الإسلام وأهله ، عن ابن جريج وغيره[٣] وعليه فالسّعى هنا العمل ، وهو مجازٌ سائغٌ فى استعمال العرب ، ومنه : وأن ليس للإنسان إلاّ ما سعى . ومن أراد الآخرة وسعى لها سَعْيَها وهو مؤمن . وقال الشّاعر[٤] .

فلو أنّ ما أسعى لأدنى معيشةٍ كفانى ، ولم أطلب ، قليلٌ من المال
ولكنّما أسعى لمجدٍ مؤثّلٍ وقد يدرك المجد المؤثّل أمثال

وقال آخر[٥] :

أسعى على حيّ بنى مالكٍ كلّ امرىءٍ فى شأنه ساعى[٦]

فى الأرض : معلومٌ أنّ السّعى لا يكون إلاّ فى الأرض . ولكن أفاد العموم بمعنى فى أىّ مكانٍ حلّ منها سعى للفساد . ويدلّ لفظ فى الأرض على كثرة سعيه ونقلته فى نواحى الأرض لأنّه يلزم من عموم الأرض تكرار السّعى[٧] .

ليفسد فيها : يقول الطّبرىّ[٨] : « وقد يدخل فى الإفساد جميع المعاصى وذلك أنّ العمل بالمعاصى إفسادٌ فى الأرض ، فلم يخصّص الله وصفه ببعض معانى الإفساد دون بعض . وجائزٌ أن يكون ذلك الإفساد منه كان بمعنى قطع الطّريق ، وجائزٌ أن يكون غير

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٨٢٥

(٢) تفسير القرطبىّ ٨٢٥ وانظر تفسير الطبرى ١٨٤/٢

(٣) تفسير القرطبىّ ص ٨٢٤ وانظر البحر المحيط ١١٥/٢

(٤) هو امرؤ القيس ديوانه ص ٣٩ بتحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم . أى لو كان سعيى لأقرب معيشةٍ وأدناها لكفانى قليلٌ من المال و لم أطلب المُلْك . والمؤثّل : المثمرّ الّذى له أصل ؛ وهو الكثير أيضا .

(٥) هو أبو قيس صيفىّ بن الأسلت الأوسى الجاهلىّ . ديوانه ص ٧٨ دراسة جمع تحقيق د. حسن محمد باجوده . والرّواية المشهورة أسعى على جُلّ بنى مالك . وجُلّ الشّىء معظمه .

(٦) البحر المحيط ١١٥/٢

(٧) البحر المحيط ١١٥/٢

(٨) تفسير الطّبرى ١٨٤/٢

ذلك . وأىّ ذلك كان منه فقد كان إفساداً فى الأرض لأنّ ذلك منه لله عزّ وجلّ معصية ، غير أنّ الأشبه بظاهر التّنزيل أن يكون كان يقطع الطّريق ويخيف السَّبيل ، لأن الله تعالى ذكره وصفه فى سياق الآية بأنّه سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنّسل .... » .

ويهلك الحرث والنّسل : عطف هذه العلّة على العلّة قبلها وهو : ليفسد فيها ، وهو شبيهٌ بقوله : وملائكته ورسله وجبريل وميكال . لأنّ الإفساد شاملٌ يدخل تحته إهلاك الحرث والنّسل . ولكنّه خصّهما بالذّكر لأنهما أعظم ما يحتاج إليه فى عمارة الدّنيا فكان إفسادهما غاية الإفساد[١] والحرث فى اللّغة : الشّقّ ، ومنه المحراث لما يشقّ به الأرض . والحرث : كسب المال وجمعه . وفى الحديث اُحْرُثْ لدنياك كأنّك تعيش أبدًا . والحرث الزّرع والحرّاث الزّرّاع[٢] والحرث : محلّ نماء الزّروع . والثّمار[٣] عن ابن عبّاس : الحرث : ما تحرثون[٤] والحرث : الزّرع[٥] . والنّسل : النّون والسّين واللامّ أصلٌ صحيحٌ يدلّ على سَلٍّ شىءٍ وانسلاله . والنَّسْل : الولد . لأنّه يُنْسلُ من والدته[٦] وأصله الخروج والسّقوط[٧] بسرعة . ومن قولهم : نَسَلَ وبَرُ البعير وشعر الحمار وريش الطّائر خرج فسقط منه . وقيل : النّسل : الخروج متتابعاً . ومنه نُسَالُ الطّائر ما تتابع سقوطه من ريشه[٨] وقال امرؤ القيس[٩] :

فسلّى ثيابى من ثيابك تَنْسُلِ[١٠]

وتناسلوا : ولد بعضُهم من بعض . ومنه النَّسَلان : مِشْيَةُ الذئب إذا أعنق وأسرع .

---

(١) البحر المحيط ١١٦/٢
(٢) تفسير القرطبىّ ص ٨٢٥
(٣) تفسير ابن كثير ٢٤٦/١
(٤) تفسير الطّبرىّ ١٨٥/٢
(٥) تفسير الطّبرىّ ١٨٤/٢
(٦) معجم مقاييس اللّغة « نسل » ٤٢٠/٥
(٧) تفسير القرطبىّ ص ٨٢٦
(٨) البحر المحيط ١٠٨/٢
(٩) صدر البيت : وإن كنت قد ساءتك منّى خليقة . يقول : إنّ كان فى خلقى ما لا ترضينه فسلّى ثيابى من ثيابك ، أى انصرف وأخرجى أمرى من أمرك .
(١٠) تفسير القرطبى ص ٨٢٦ والبحر المحيط ١٠٨/٢

والماشى يَنْسِل إذا أسرع . قال الله عزّ وعلا : ﴿ وهم من كلّ حَدَبٍ يَنْسِلون ﴾[١] والإطلاق على الولد نسلاً من إطلاق المصدر على المفعول . يُسَمَّى بذلك لخروجه من ظهر الأب وسقوطه من بطن الأم بسُرْعة[٢] عن ابن عبّاس : النّسل : نسل كلّ دابّة[٣] والنّسل : العقب والولد[٤] .

والله لا يحبّ الفساد : الفساد مصدر من قول القائل : فسد الشّىء يفسد . نظير قولهم : ذهب يذهب ذهاباً[٥] وقال ابن عبّاس : المعنى لا يرضى المعاصى . وقال الرّاغب : الإفساد إخراج الشّىء من حالةٍ محمودة لا لغرضٍ صحيح[٦] والفساد : الخراب[٧] والفساد ضدّ الصّلاح ، وهو معاندة الله فى قوله :﴿ واستعمركم فيها ﴾[٨] ويقول القرطبىّ[٩] : « قلت . والآية بعمومها تعمّ كلّ فسادٍ كان فى أرضٍ أو مالٍ أو دين ، وهو الصّحيح إن شاء الله تعالى » ويقول أبو حيّان[١٠] : « والله لا يحب الفساد : تقدّمت علّتان ، والثّانية داخلةٌ تحت الأولى ، فأخبر تعالى أنّه لا يحبّ الفساد ، واكتفى بذكر الأولى لانطوائها على الثّانية » .

إن هذا المنافق الّذى يخالف اعتقاده ما يتلفّظ به ، حينما يتولّى عنك أيّها الرّسول الكريم بجسده ، ويعرض ببدنه ، وينصرف بقلبه ، ويسعى فى الأرض ويتقلّب فى البلاد ويتحوّل سريعاً من مكانٍ إلى آخر ، إنّما يفعل كلّ ذلك بقصد الإفساد فى الأرض وارتكاب كافّة المعاصى وإتيان كلّ الموبقات الّتى تغضب الله تعالى وتخالف أوامره بعمارة الأرض باعتبار الإنسان خليفة الله تعالى فى أرضه : ﴿ وإذا تولّى سعى فى الأرض ليفسد فيها ﴾ إنّ التّولّى كما يكون بجسد المنافق يكون بقلبه ، وإنّ السّعى يعنى الحركة السّريعة

---

(١) معجم مقاييس اللّغة « نسل » ٥/٤٢٠
(٢) البحر المحيط ٢/١٠٨
(٣) تفسير الطّبرىّ ٢/١٨٥
(٤) تفسير الطّبرىّ ٢/١٨٤
(٥) تفسير الطّبرىّ ٢/١٨٥
(٦) البحر المحيط ٢/١١٦
(٧) تفسير القرطبىّ ص ٨٢٦ والبحر المحيط ٢/١١٧ ونسب هذا الرّأى لابن عبّاس .
(٨) البحر المحيط ٢/١١٦
(٩) تفسير القرطبىّ ص ٨٢٦ وانظر البحر المحيط ٢/١١٧
(١٠) البحر المحيط ٢/١١٦

والعمل الخبيث ، وإنّ النّصّ على الأرض يعنى حرص هذا المنافق على الإفساد فى أىّ بلادٍ نزل وأىّ مكانٍ حلّ فيه ، وإن انتهى الأمر بالمنافق إلى قطع الطّريق وإخافة كلّ ابن سبيل . على أن أكثر المجالات إفساداً مجال الحرث من زروعٍ وثمار ومجال النّسل من سائمةٍ وبهيمة أنعام . وإذا كان إفساد المنافق فى الأرض قد انتهى به إلى إيذاء أخيه الإنسان ، فإنّه يتجاوزه إلى النّبات والحيوان ، النّبات الّذى هو مصدر غذاءٍ للإنسان والحيوان ، والحيوان الّذى هو مصدر غذاءٍ ونفعٍ للإنسان .

وما الّذى يصحّ أن يجنيه عاقلٌ من إتلاف زرعٍ أو حرق شجرٍ أو تبديد ثمر ؟ وما الّذى يصحّ أن يجنيه عاقلٌ من قتل حيوانٍ أليفٍ أعجم ليس بدافع النّفع ولكن بباعث الضّرر والأشر والبطر ؟ وبقصد إيذاء عبادٍ مسلمين لله ربّ العالمين يشهدون ألاّ إلـه إلاّ الله وأنّ محمّداً رسول الله . إنّ جنس المنافق يفعل فى كلّ زمانٍ ومكانٍ هذه الأفاعيل رغم أنّه يُعْلن أمام من يخشى بأسه وسطوته أنّه مسلمٌ لله ربّ العالمين محبٌّ لله ورسوله ويشهد سبحانه وتعالى على ما يقول . إنّ هذا المنافق حينما يخلو له الجوّ يبيض ويَصْفر ويفعل كلّ ما يخالف كلامَه الحلو ومنطقَه العذبَ فى الحياة الدّنيا . والآية الكريمة فى جزئيّتها الأخيرة : ﴿ والله لا يحبّ الفساد ﴾ تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى لا يرضى عن كلّ أنواع الفساد ولا يباركه .

ومع أنّ إهلاك الحرث والنّسل داخلٌ فى الإفساد فى الأرض عموماً فقد كان النّصّ عليهما باعتبارهما عماد حياة الإنسان ، لأنّ فى وجود الحرث دليلاً على وجود الماء عماد الحياة ، للنّبات ابتداءً ، وللحيوان تبعاً لذلك ، وللإنسان أوّلاً وأخيراً .

وبسبب دخول إهلاك الحرث والنّسل فى جملة الفساد كان فى الجزئيّة الأخيرة تقرير عدم رضا الله سبحانه وتعالى وعدم حبّه للفساد ، أى حبّه للصّلاح والإصلاح جلّ وعلا ، وقد جاء على لسان نبىّ الله تعالى شعيب عليه السلام قوله عزّ من قائل[1] : ﴿ إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكّلت وإليه أنيب ﴾ .

---

(١) سورة هود ٨٨

الآيــة رقــم (٢٠٦)

قال تعالى : ﴿ وإذا قيل له اتّق الله أخذته العزّة بالإثم فحسبه جهنّمُ ولبئس المهاد ﴾ .

أخذته العزّة : احتوت عليه وأحاطت به وصار كالمأخوذ لها كما يأخــذ الشّيء باليد[١] .

والعزّة : الأنَفَة والحميّة والغضب[٢] وقيل : العِزّة هنا : المَنَعَة وشدّة النّفس أى اعتزّ فى نفسه وانتحى فأوقعته تلك العزّة فى الإثم حين أخذته وألزمته إيّاه[٣] .

بالإثم : يحتمل الباء أن تكون للمصاحبة ، أى أخذته مصحوباً بالإثم أو مصحوبةً بالإثم فيكون للحال من المفعول أو الفاعل . ويحتمل أن تكون سببيّة والمعنى أنّ إثمّه السّابق كان سبباً لأخذ العزّة له حتّى لا يقبل ممّن يأمره بتقوى الله تعالى[٤] أى بسبب ما اشتمل عليه من الآثام[٥] وعلى أن تكون الباء سببيّة فسّره الحسن قال : أى من أجل الإثم الّذى فى قلبه يعنى الكفر[٦] .

فحسبه : أى كافيه معاقبةً وجزاءً ، كما تقول للرّجل : كفاك ما حلّ بك ! وأنت تستعظم وتُعْظم عليه ما حلّ[٧] تقول : أحسبنى الشّيء كفانى ، فوقع حسب موقع محسب[٨] .

جهنّم : علمٌ للنّار[٩] فحسبه جهنّم جملة مركّبة من مبتدأ وخبر[١٠] .

---

(١) البحر المحيط ١١٧/٢

(٢) تفسير الطّبرىّ ١٨٦/٢ وتفسير ابن كثير ٢٤٧/١ والجلالين وتفسير القرطبىّ ص ٨٢٧ والبحر المحيط ١١٧/٢

(٣) تفسير القرطبىّ ص ٨٢٧

(٤) البحر المحيط ١١٧/٢

(٥) تفسير ابن كثير ٢٤٧/١

(٦) البحر المحيط ١١٧/٢

(٧) تفسير القرطبىّ ص ٨٢٧ وتفسير ابن كثير ٢٤٧/١ وتفسير الطّبرىّ ١٨٦/٢ والجلالين والبحر المحيط ١٠٩/٢ و ١١٧

(٨) البحر المحيط ١٠٩/٢

(٩) البحر المحيط ١٠٨/٢

(١٠) البحر المحيط ١١٧/٢

ولبئس : مذهب البصريّين أنّ بئس ونعم فعلان جامدان وأنّ المرفوع بعدهما فاعل بهما وأنّ المخصوص بالذّمّ إن تقدّم فهو مبتدأ وإن تأخّر فكذلك . هذا مذهب سيبويه . وحذف هنا المخصوص بالذّمّ للعلم به إذ هو متقدّم والتّقدير : ولبئس المهاد جهنّم[١] .

المهاد : الفراش والوطاء[٢] وهو الموضع المهيّأ للنّوم . ومنه مهد الصّبيّ . وسمّى جهنّم مهاداً لأنّها مستقرّ الكفّار[٣] وقيل هو جمع مهد وهو الموضع المهيّأ للنّوم[٤] وجعل ما أعدّ لهم مهاداً على سبيل الهزء بهم إذ المهاد هو ما يستريح به الإنسان ويوطّأ له للنّوم ومثله قول الشّاعر :

وخيلٍ قد دلفت لها بخيلٍ تحيّة بينهم ضربٌ وجيع

أى القائم مقام التّحية هو الضّرب الوجيع ، وكذلك القائم مقام المهاد هو المستقرّ فى النار[٥] .

يعلن المنافق خلاف ما يسرّ وها هو ذا يستحوذ بحلاوة منطقه وعذوبة كلامه على من يخاطب ويشهد الله تعالى على موافقة ما يعلن على ما يسرّ بينما هو ألد أعداء الإسلام والمسلمين . ويفعل المنافق خلاف ما يقول فها هو ذا يفسد فى الأرض بينما يفيض منطقه بالصّلاح والخير . فإذا حدث أن ظهر ذلك المنافق ، لعبدٍ من عباد الله تعالى الصّالحين ، على حقيقته ، وظهر كذبه وخداعه وغشّه ، وأخلص عبد الله تعالى له النّصيحة ، وأمره بما أمر الله تعالى به حبيبه المصطفى ﷺ وسائر النّاس بأن يتّقى الله تعالى ، وأن يراقب الله تعالى فى أقوله وأفعاله ، وأن يوافق ظاهره باطنه وعلانيته سريرته وقد قال تعالى مخاطباً محمّد بن عبد الله ﷺ[٦] : ﴿ يا أيّها النّبىّ اتّق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين . إنّ الله كان عليماً حكيماً ﴾ وقال تعالى[٧] : ﴿ ولقد وصينا الّذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإيّاكم أن اتّقوا الله ﴾ وقال تعالى[٨] : ﴿ يا إيّها النّاس اتّقوا ربّكم الّذى خلقكم من

---

(١) البحر المحيط ٢/١١٨
(٢) تفسير الطّبرىّ ٢/١٨٦
(٣) تفسير القرطبىّ ص ٨٢٧
(٤) البحر المحيط ٢/١٠٩
(٥) البحر المحيط ٢/١١٨
(٦) سورة الأحزاب ١
(٧) سورة النّساء ١٣١
(٨) سورة النساء ١

نفسٍ واحدةٍ وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً . واتّقوا الله الّذى تساءلون به والأرحام . إن الله كان عليكم رقيبا ﴾ إذا حدث أن ظهر ذلك المنافق على حقيقته لعبدٍ من عباد الله تعالى وأخلص له النّصيحة وأمره بتقوى الله تعالى ، فإنّ ذلك المنافق الّذى يشعر آنذاك بشيءٍ من قدرةٍ وقوّةٍ أو سلطة ، تأخذه بعنفٍ العزّة بالإثم ، وتعصف به نعرة الجاهليّة الآثمة الجهلاء ، وتستبدّ به بقوّةٍ حميّة الجاهليّة الحمقاء وأنفتها الخرقاء . وإنّما تسنّى لهذه العزّة الآثمة أن تأخذه والنّعرة الظّالمة أن تستبدّ به وتستحوذ عليه بسبب عظيم الآثام الّتى أتى وكبير الذّنوب الّتى ارتكب . وها هو ذا الكبرياء الآثم الّذى تسنده القدرة الّتى تمتلىء بالشّعور بها نفس المنافق تجعل هذا المفسد فى الأرض غير مستعدٍّ لتقبّل أىّ نصيحةٍ نابعةٍ من قلبٍ سليم ونفسٍ صادقة ، وإن كانت هذه النّصيحة الأمر بتقوى الله تعالى . إنّ عزّته الآثمة تجعله من الأنفة والغرور للدّرك الذى يعتبر معه أىّ نصيحةٍ له طعنا فى كبريائه . وإذا كانت العزّة بالإثم قد أخذته بسبب الآثام الّتى ارتكب ، فإنّ ردّ الفعل السّيّىء لديه تجاه ناصحه الأمين يعتبر امتداداً لتلك الآثام السّابقة ، ومؤشراً على مواصلة الآثم ارتكاب الآثام والذّنوب . وإنّ هذا الموقف العجيب للمنافق يذكّرنا بقوله تعالى فى سورة الحجّ[1] عن الكافرين : ﴿ وإذا تُتْلَى عليهم آياتُنا بيّناتٍ تَعْرِفُ فى وجوه الّذين كفروا المنكر ، يكادون يسطون بالّذين يتلون عليهم آياتنا . قل أفأُنبّئكم بشرٍّ من ذلكم . النّار وعدها الله الّذين كفروا وبئس المصير ﴾ .

إن هذا المنافق على غرار الكافر كافيه جزاءً وعقوبةً النّار مصيراً ومستقرّاً ، فراشاً ووطاءً . ولبئس المهاد جهنّم ، ولبئس هى اللّحاف والغِطاء ، الفِراش والوِطاء .

وفى قوله : أخذته العزّة بالإثم نوعٌ من البديع يسمّى التّتميم ، وهو إرداف الكلام بكلمة ، ترفع عنه اللّبس وتقرّبه للفهم ، كقوله تعالى : ﴿ ولا طائرٍ يطير بجناحيه ﴾ ، وذلك أنّ العزّة محمودةٌ ومذمومة . فالمحمودة طاعة الله كما قال : أعزّةٍ على الكافرين . ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين . فإنّ العزّة لله جميعاً . فلمّا قال : بالإثم ، اتّضح المعنى وتمّ وتبيّن أنّها العزة المذمومة المؤثم صاحبها[2] .

---

(١) الآية ٧٢

(٢) البحر المحيط ٢/١١٧

الآيــة رقــم (٢٠٧)

قال تعالى : ﴿ ومن النّاس من يَشْرِى نفسه ابتغـاء مـرضاة الله . والله رءوفٌ بالعباد ﴾ .

من يشرى نفسه : من يبيع نفسه . ومنه : وشروه بثمنٍ بخسٍ أى باعوه . وأصله الاستبدال . ومنه قوله تعالى : ﴿ إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنّة[١] ومنه تسمّى الشّراة وكأنّهم باعوا أنفسهم من الله[٢] .

ابتغاء : طلب[٣] وانتصاب ابتغاء على أنّه مفعولٌ من أجله أى الحامل لهم على بيع أنفسهم إنّما هو طلب رضا الله تعالى . وهو مستوف لشروط المفعول من أجله ، من كونه مصدراً متّحد الفاعل والوقت[٤] .

مرضاة : المرضاة الرّضا . يقال . رَضِىَ يرضى رِضَا ومرضاة[٥] ومرضاة مصدر بنى على التّاء كمدعاة . والقياس تجريده عنها كما تقول : مرمى ومغزى[٦] .

سـبب النّزول :

من العلماء من ذهب إلى أنّ الآية الكريمة نزلت فى مناسبة معيّنة . ومنهم وهم كُثُرٌ من ذهب إلى أن الآية الكريمة فى كلّ مجاهدٍ فى سبيل الله تعالى . وحتّى الّذين ذهبوا إلى أنّ الآية الكريمة نزلت فى مناسبةٍ معيّنة هم يذهبون وراء ذلك إلى أنّ العبرة بعموم اللّفـظ لا بخصوص السّبب . قال المفسّرون : أخذ المشركون صُهَيْبًا فعذّبوه ،فقال لهم صهيب :

---

(١) تفسير القرطبى ص ٨٢٩ والجلالين والكشّاف ٢٦٨/١ والبحر المحيط ١١٨/٢ وتـفسير الطّبرىّ ١٨٦/٢

(٢) البحر المحيط ١١٩/٢

(٣) تفسير الطّبرىّ ١٨٦/٢ والجلالين .

(٤) البحر المحيط ١١٩/٢ وتفسير القرطبى ص ٨٢٨

(٥) تفسير القرطبىّ ٨٣٠/٢ (٦) البحر المحيط ١١٩/٢

إنّى شيخٌ كبير لا يضرّكم أَمِنْكُمْ كنت أم من غيركم فهل لكم أن تأخذوا مالى وتذروني ودينى ففعلوا ذلك . وكان شرط عليهم راحلةً ونفقة ، فخرج إلى المدينة فتلقّاه أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ورجال . فقال له أبو بكر : ربح بيعك أبا يحيى . فقال له صهيب : وبيعُك فلا يخسر فما ذاك ؟ فقال : أنزل الله فيك كذا . وقرأ عليه هذه الآية(١) روى ذلك عن ابن عبّاس وأنس وسعيد بن المسيّب وأبى عثمان النّهدىّ وعكرمة وجماعة(٢) وقيل الآية عامة تتناول كلّ مجاهدٍ فى سبيل الله أو مستشهدٍ فى ذاته أو مغيّر منكر(٣) .

تحدثت الآيات الكريمات الثّلاث السّابقات عن الفريق المنافق من النّاس ، وذلك على نسق الحديث من ذى قبل عن الكافرين الّذين لا يسألون الله تعالى فى الحجّ وفى غير الحجّ إلاّ فى أمور الدّنيا . وتتحدّث هذه الآية الكريمة عن المؤمنين وذلك على نسق الحديث من ذى قبل كذلك عن المؤمنين الّذين يسألون الله تعالى خيرى الدّنيا والآخرة . وقد ابتدأ الحديث من ذى قبل عن المؤمنين بالقول : « ومنهم » عطفاً على القول عن الكافرين : ﴿ ومن الناس ﴾ لقرب ما بين الحديثين ، بينما جاء الحديث عن المؤمنين هنا مبتدئاً بالقول : ﴿ ومن النّاس ﴾ لبعد ما بين الحديثين(٤) .

إنّ هذا الفريق من النّاس المؤمنين يبيع نفسه ابتغاء مرضاة الله تعالى ويبذل روحه رخيصةً فى سبيله جلّ وعلا ويقدّم كلّ ما يملك من غالٍ ورخيص بنفسٍ راضيةٍ مطمئنّة رجاء الجزاء الأوفى من الله تعالى يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلبٍ سليم . ونستطيع أن نفهم أنّ هذا المؤمن المجاهد فى سبيل الله تعالى يبذل كلّ ما يملك فى كلّ الأعمال الّتى يحبّها جلّ وعلا ويرضاها ، وبخاصّةٍ فى مجال الجهاد فى سبيل الله تعالى ، لأنّ الجهاد فى سبيل الله تعالى ذروة سنام الإيمان ، ولأن الآية الكريمة هنا تتحدّث عن فريق

---

(١) انظر تفسير القرطبىّ ص ٨٢٨ والكشّاف ٢٦٨/١ والجلالين وتفسير ابن كثير ٢٤٧/١ وتفسير الطّبرىّ ١٨٦/٢ ، ١٨٧

(٢) تفسير ابن كثير ٢٤٧/١

(٣) تفسير القرطبىّ ص ٨٢٩

(٤) انظر هنا البحر المحيط ١١٨/٢

مؤمن من النّاس يقابل الفريق المنافق من النّاس الّذى إذا تولّى عن الحقّ سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنّسل ، ويتجاوز إهلاك الحرث والنّسل إلى إهلاك عباد الله تعالى . وهكذا يقاتل هذا الفريق المنافق من النّاس فى سبيل الطاغوت بينما يقاتل الفريق المؤمن من النّاس فى سبيل الله تعالى وابتغاء مرضاته جلّ وعلا ودخول جنّاته الّتى فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وفى مقابل القول عن المنافقين ﴿ والله لا يحبّ الفساد ﴾ وقياساً من الوجهة الصّوتيّة عليه يجىء فى نهاية الآية الكريمة القول : ﴿ والله رءوف بالعباد ﴾ إنّ عباد الله تعالى المتّقين هؤلاء يهديهم ربّهم بإيمانهم ويزيدهم إلى هداهم هدًى ويؤتيهم تقواهم . وكلّ ذلك من مظاهر رأفة الله تعالى بهم ورحمته الّتى وسعت كلّ شىء . إنّ الله سبحانه وتعالى رءوفٌ بهؤلاء العباد الّذين يهديهم ربّهم إلى الخيرات ويوفّقهم للقيام بها ويتفضّل جلّ وعلا عليهم بقبولها ويثيبهم عليها فى الأولى وفى الآخرة فى الجنّة الّتى عرضها السّماوات والأرض والّتى أعدّها الله تعالى للمتّقين . إنّ فى الجنّة ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر . وبشأن المجاهدين فى سبيل الله تعالى الشّهداء السّعداء يتوّج فضل الله تعالى عليهم برضائه جلّ وعلا عليهم . فى الحديث الصّحيح فى محاورة أهل الجنّة ربّهم تعالى حين يسألهم هل رضيتم فيقولون : يا ربّنا كيف لا نرضى وقد أدخلتنا جنّتك وباعدتنا من نارك فيقول :ولكم عندى أفضل من ذلك ، فيقولون : يا ربّنا وما أفضل من ذلك فيقول : أحلّ عليكم رضائى فلا أسخط عليكم بعده[١] .

الآيــة رقــم (٢٠٨)

قال تعالى : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا ادخلوا فى السّلم كافّةً ولا تتّبعوا خطوات الشّيطان إنّه لكم عدوٌّ مبين ﴾ .

ادخلوا فى السّلم : عن ابن عبّاس : ادخلوا فى الإسلام[٢] قال الكسائىّ : السّلم

---

(١) البحر المحيط ١١٩/٢

(٢) تفسير الطبرى ١٨٨/٢ وتفسير ابن كثير ٢٤٧/١ وتفسير القرطبىّ ص ٨٣٠ والجلالين .

والسَّلْم بمعنًى واحد . وكذا هو عند أكثر البصريّين ، وهما جميعًا يقعان للإسلام والمسالمة . وفرّق أبو عمرو بن العلاء بينهما فقرأ ها هنا : ادخلوا فى السّلم ، وقال : هو الإسلام . وقرأ الّتى فى الأنفال[١] والّتى فى سورة محمّد ﷺ[٢] السَّلم بفتح السّين وقال : هى بالفتح المسالمة . وأنكر المبرّد هذه التّفرقة . وقال عاصم الجحدرىّ : السِّلم الإسلام . والسَّلم الصّلح . والسَّلم الاستسلام . وأنكر محمّد بن يزيد هذه التّفريقات وقال : اللّغة لا تؤخذ هكذا ، وإنّما تؤخذ بالسّماع لا بالقياس ، ويحتاج من فرّق إلى دليل . وقد حكى البصريّون : بنو فلان سِلْمٌ وسَلْمٌ وسَلَم بمعنًى واحد . قال الجوهرىّ : والسِّلم الصّلح ، يفتح ويكسر ، ويذكّر ويؤنّث ، وأصله من الاستسلام والانقياد ، ولذلك قيل للصّلح سِلْم قال زهير :

وقد قلتما إن ندرك السِّلم واسعًا بمالٍ ومعروفٍ من الأمر نَسْلَم[٣]

كافّة : قال ابن عبّاس : كافّةً جميعاً[٤] نصب على الحال من السّلم أو من ضمير المؤمنين ، وهو مشتقٌّ من قولهم : كففت أى منعت ، أى لا يمتنع منكم أحدٌ من الدّخول فى الإسلام . والكفّ المنع ، ومنه كُفّة القميص بالضّم[٥] لأنّها تمنع الثّوب من الانتشار ، ومنه كِفّة الميزان بالكسر الّتى تجمع الموزون وتمنعه أن ينتشر ، ومنه كفّ الإنسان الّذى يجمع ومنافعه ومضارّه . وكلّ مستدير كِفّة (بالكسر) وكلّ مستطيل كُفّة (بالضمّ) ورجلٌ مكفوف البصر أى منع عن النّظر ، فالجماعة تُسمَّى كافة لامتناعهم عن التّفرّق[٦] وكأنّهم كفّوا أن يخرج منهم أحدٌ باجتماعهم[٧] وهى حالٌ تؤكّد معنى العموم فتفيد معنى كلّ ، فإذا قلت قام النّاس كافّة فالمعنى قاموا كلّهم[٨] . وكافّة هو اسم فاعل استعمل بمعنى جميعاً[٩]

---

(١) الآية ٦١ (٢) الآية ٣٥

(٣) تفسير القرطبىّ ص ٨٣١ وانظر البحر المحيط ٢/١٠٩ ، ١٢٠ وتفسير الطّبرىّ ٢/١٨٨

(٤) تفسير الطّبرىّ ٢/١٨٩ وتفسير ابن كثير ١/٢٤٨ وتفسير القرطبى ٨٣١ والبحر المحيط ٢/١٢٠

(٥) كفّه القميص حاشيته وما استدار حول الذّيل والجمع كُفف (بالضمّ) وكِفاف (بالكسر) .

(٦) تفسير القرطبىّ ص ٨٣١ وانظر البحر المحيط ٢/١٠٩

(٧) الكشّاف ١/٢٦٨ (٨) البحر المحيط ٢/١٢٠

(٩) البحر المحيط ٢/١٠٩ و ١٢٠

خطوات الشّيطان : طرائق الشّيطان[١] وطرقه[٢] .

إنّه بالنّظر إلى ما ذكره العلماء من أسباب نزول الآية الكريمة يتبيّن أنّهم مختلفون ، وقد أوجز أبو حيّان هذه الآراء بقوله[٣] : « نزلت فى عبد الله بن سلام ومن أسلم معه كانوا يتّقون السّبت ولحم الجمل وأشياء تتّقيها أهل الكتاب . قاله عكرمة ورواه أبو صالح عن ابن عبّاس ، أو فى أهل الكتاب الّذين لم يؤمنوا برسول الله ﷺ قاله الضّحّاك وروى عن ابن عبّاس . أو فى المسلمين بأمرهم بالدّخول فى شرائع الإسلام . قاله مجاهد وقتادة . أو فى المنافقين واحتجّ لهذا بورودها عقيب صفة المنافقين » ويفهم ممّا كتبه ابن كثير فى تفسيره ميله إلى كون الآية الكريمة تأمر عباد الله تعالى المؤمنين به المصدّقين برسوله . ويقول الطّبرىّ[٤] ــ ونحن نرى رأيه ــ : « والصّواب من القول فى ذلك عندى أن يقال إنّ الله جل ثناؤه أمر الّذين آمنوا بالدّخول فى العمل بشرائع الإسلام كلها ، وقد يدخل فى الّذين آمنوا المصدّقون بمحمّد ﷺ وبما جاء به والمصدّقون بمن قبله من الأنبياء والرّسل وما جاءوا به . وقد دعا الله عزّ وجلّ كلا الفريقين إلى العمل بشرائع الإسلام وحدوده والمحافظة على فرائضه الّتى فرضها ونهاهم عن تضييع شىءٍ من ذلك . فالآية عامّةٌ لكلّ من شمله اسم الإيمان فلا وجه لخصوص بعضٍ بها دون بعض » .

يأمر ربّ العزّة عباده الّذين آمنوا بالله تعالى ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمّد ﷺ رسولاً وبالقرآن دستوراً أن يدخلوا فى دين الإسلام كافّة وأن يتحلّوا بصفة الإيمان عامّةً وأن يأخذوا الإسلام كلاًّ وأن يذعنوا لتعاليمه جملةً وتفصيلا وأن يمتثلوا لأوامره ونواهيه وألاّ يكونوا كالسّابقين الّذين قالوا نؤمن ببعضٍ ونكفر ببعضٍ وأرادوا أن يتّخذوا بين ذلك سبيلا . إنّ دخول الّذين آمنوا فى الإسلام كافّةً وإذعانهم التّام لكلّ تعاليمه ورضاهم

---

(١) تفسير الطبرى ٢/١٨٩

(٢) الجلالين كما جاء فى تفسير الآية ١٦٨

(٣) البحر المحيط ٢/١٢٠ وانظر تفسير القرطبىّ ص ٨٣١ ابن كثير ١/٢٤٧ وتفسير الطّبرىّ ٢/١٨٨ و ١٨٩

(٤) تفسير الطّبرىّ ٢/١٨٩

الكامل بكلّ تعاليمه إنّ كلّ ذلك دليل إيمانهم وتقواهم وقد قال تعالى[١] : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتّى يحكّموك فيما شَجَرَ بينهم ثمّ لا يجدوا فى أنفسهم حَرَجًا ممّا قَضَيْتَ ويسلّموا تسليما ﴾ وهكذا يتبيّن أنّ الدّخول فى الإسلام معناه عدم الخروج بحالٍ من الأحوال عن أيّ من تعاليمه . وحينما يدخل الّذين آمنوا فى السّلم كافّةً يكونون بفضل الله تعالى فى سواء السَّبيل وفى كنف الرّحمن ، وهذه المعانى يعمّقها النّهى عن اتّباع خطوات الشّيطان ، أى النّهى عن الخروج عن سواء السَّبيل والصَّراط المستقيم : ﴿ ولا تتّبعوا خطوات الشّيطان ﴾ إنّ الأمر بالدّخول فى الإسلام كافّة يردف بالنّهى عن اتّباع خطوات الشّيطان والسّير فى طرقه المعوجّة خروجاً عن الصّراط المستقيم وابتعاداً عن سواء السَّبيل . وبقدر اتّباع خطوات الشّيطان يكون الابتعاد عن الصّراط المستقيم ، وقد حذّرنا القرآن الكريم فى الكثير من المواضع من اتّباع خطوات الشّيطان فإنّه عدوّ للإنسان بيّن العداوة له ، ومن تلك المواضع هذه الآية الكريمة : ﴿ إنّه لكم عدوّ مبين ﴾ وقوله تعالى[٢] : ﴿ إنّ الشّيطان لكم عدوٌّ فاتّخذوه عدوّاً . إنّما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السّعير ﴾ وقوله تعالى[٣] : ﴿ يأ يّها النّاس كلوا ممّا فى الأرض حلالاً طيّباً ولا تتّبعوا خطوات الشّيطان إنّ لكم عدوٌّ مبين . إنّما يأمركم بالسّوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ .

الآيــة رقــم (٢٠٩)

قال تعالى : ﴿ فإن زللتم من بعدما جاءتكم البيّنات فاعلموا أنّ الله عزيزٌ حكيم ﴾ .

فإن زللتم : أصل الزّلل للقدم . يقال : زلّت قدمه كما قال :

ولا شامت إن نعل عزّة زلّت

---

(١) سورة النّساء ٦٥ (٢) سورة فاطر ٦

(٣) سورة البقرة ١٦٨ ، ١٦٩

ثمّ يستعمل فى الرّأى والاعتقاد ، وهو الزّلَق[١] ويقال : زلَّ يَزِلّ زَلاًّ وزَلَلاً وزُلولاً أى دَحَضَت قدمه[٢] .

هذه الآية الكريمة مبنيّةٌ على الآية الكريمة السّابقة ومترتّبة عليها ومن ثمّ فالخطاب فيها متّجه إلى الّذين آمنوا المأمورين بأن يدخلوا فى السِّلم كافّةً . إنّه بسبب تأخّر القول : « كافة » صحّ أن يعود إلى الّذين آمنوا فعليهم أن يدخلوا جميعاً وصحّ أن يعود فى الوقت ذاته إلى السِّلم فعلى المؤمنين جميعاً أن يقبلوا تعاليم الإسلام كلّها جملةً وتفصيلاً فهذا هو الصّراط المستقيم والطّريق القويم . إنّ المرء ما دام سائراً بفضل الله تعالى ومنّه فى الصّراط المستقيم تكلؤه عين الله تعالى وترعاه عنايته جلّ وعلا فإنّه بإذن الله تعالى بعيدٌ عن طريق الشّيطان آمنٌ أن تزلّ به نعله والعثار . أما إذا تنحّى عن طريق الاستقامة ــ لا سمح الله ــ وتنكّب الصّراط المستقيم واتّبع سبل الشّيطان الرّجيم وما أكثرها فتفرّقت تلك السّبل بأهوائه ورغائبه وذهبت به كلّ مذهب فإنّ هذه الأحوال السّيّئة المرغوب عنها تحذّر منها الآية الكريمة أىّ تحذير . وها هى ذى الآية الكريمة فى النّعى على الّذين تنكّبوا جادّة الطريق وهجروا سبيل الحقّ الواحد تستعير لهم حال من عثروا فى الطّريق وزلّت بهم النّعال فى سبل الشّيطان باعتبارها سبلاً وخيمة العاقبة لا يغمض عينيه عن أهوالها وعواقبها الوخيمة إلاّ من سوّلت له نفسه الأمّارة بالسّوء وزيّن له الشّيطان الرّجيم سبل الغَواية ﴿ فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البيّنات ﴾ ومن المعروف أن من تزلّ به النّعل قد تكون تلك الزّلّة القاضية له ، وقد تعاوده صحّته وسلامته بعد شديد الألم وطويل العلاج وقد لا تعاوده ، وفى كلّ الأحوال الخسارة ثابتة والصّفقة غير رابحة . ومن المعروف كذلك أنّ الآية الكريمة تبدأ بأداة الشّرط « فإن » وليس من الضّرورىّ أن يتحّق الشّرط فإذا لم يتحقّق الشّرط لم يتحقّق ما يترتّب عليه ، وبناءً على ذلك تكون الآية من باب التّحذير فعلى الّذين آمنوا أن يعضّوا بالنّواجذ على تعاليم هذا الدّين الحنيف وأن يترجموها إلى عمل وأن يلتزموا جادّة الطّريق كى يأمنوا بفضل الله تعالى الغثار وألاّ يهجروا الصّراط المستقيم وألاّ يتنكّبوا

---

(١) البحر المحيط ٢/١٢٣ وتفسير القرطبىّ ص ٨٣٢

(٢) تفسير القرطبى ص ٨٣٢

الطّريق القويم كيلا تتفرّق بهم طرق الضّلال والغواية .

والآية الكريمة فى تحذيرها : ﴿ فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البيّنات ﴾ تستعمل جملة جاء فى حقّ آيات الله تعالى البيّنات ، والمعروف أنّ جملة جاء إنّما تستعمل فى القرآن الكريم بقصد التّنبيه إلى القرب وإلى الوصول والبلوغ . والمعنى هنا أنّ آيات الله تعالى البيّنات المتمثّلة فى آى الذّكر الحكيم معجزة المصطفى ﷺ الكبرى الخالدة قد جاءت الّذين آمنوا فعلاً ووصلت وانتهت إليهم ، فها هو ذا المصطفى ﷺ بين ظهرانىْ أصحابه رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ، يرتّل عليهم آيات الله تعالى البيّنات الّتى يحملها إلى الرّسول من البشر الكريم رسولٌ من الملائكة كريم ألا وهو جبريل عليه السّلام . وقد شاءت حكمة الله تعالى أن يكون لسان المصطفى ﷺ هو لسانَ قومه ، وأن تكون آيات الله تعالى البيّنات بلسانٍ عربىٍّ مبين كى تقوم الحجّة على كلّ من سوّلت له نفسه الأمّارة بالسوء وزيّن له الشّيطان الرّجيم أن يكابر ويعاند . وبشأن غير الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين وبشأن الّذين آمنوا إلى يوم الدّين ها هو ذا القرآن الكريم بين أيديهم وأمام أعينهم كما نزل من اللّوح المحفوظ على قلب المصطفى ﷺ الذّى حفظه ووعاه وقد جمعه الله تعالى فى قلبه الشّريف وأوقفه على معناه اللّطيف . إنّ آيات الله تعالى البيّنات أمام الّذين آمنوا قد تعاون على حفظها كلٌّ من الصّدر والسّطر وقد قال عزّ من قائل[1] : ﴿ إنّا نحن نزلنا الذّكر وإنّا له لحافظون ﴾ وقال[2] : ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتابٍ ولا تخطّه بيمينك إذاً لارتاب المُبْطِلون . بل هو آياتٌ بيّناتٌ فى صدور الّذين أوتوا العلم . وما يجحد بآياتنا إلاّ الظّالمون ﴾ .

إنّ الّذين آمنوا ، إن زلّت بهم النّعل ــ لا سمح الله ــ من بعدما جاءتهم آيات العزيز البيّنات فليعلموا أنّ الله سبحانه وتعالى عزيزٌ فى ملكه غالبٌ على أمره لا يعجزه شىءٌ فى الأرض ولا فى السّماء ، حكيمٌ فى صنعه وتدبيره . على الّذين آمنوا ، إن زلّت بهم النّعل ــ لا سمح الله ــ وتنكّبوا الصّراط المستقيم أن يعلموا أنّهم حينما يعجّل الله تعالى لهم

---

(١) سورة الحجر ٩ (٢) سورة العنكبوت ٤٨ ، ٤٩

العقوبة فبعدله ، وحينما يمهلهم أن يعرفوا هذا الإمهال على حقيقته بأنّه فضلٌ من الله عليهم ولطفٌ بهم كى يعودوا سريعًا إلى بارئهم جلّ وعلا يتوبون إليه وهو جلّ وعلا الّذى يقبل التّوبة عن عباده ويستغفرونه والله هو الغفور الرّحيم ، وحذار أن يسبق إلى رُوعهم ويتبادر إلى أذهانهم المريضة ويتسلّل إلى أفهامهم السقيمة وقلوبهم العليلة أنّ إمهال الله تعالى إهمالٌ لهم . إنّ عليهم أن يعلموا دائماً وأبداً أنّ الله سبحانه وتعالى هو دائماً وأبداً العزيز فى ملكه الحكيم فى صنعه ، إن عجّل لهم العقوبة فبعدله وإن أمهلهم فبفضله ، لا معقّب لحكمه ولا رادّ لفضله جلّ وعلا .

إنّ على المؤمنين فى كلّ زمانٍ ومكان أن يعوا هذه الحقائق جيّداً وبخاصّةٍ فى أيّامنا هذه الّتى صدق عليهم فيها قول الحقّ جلّ وعلا[1] : ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا ويذيقَ بعضكم بأس بعض . انظر كيف نصرّف الآيات لعلّهم يفقهون ﴾ وإنّ الّذين آمنوا إنّما يبرأون من عقابيل زلّتهم بهجر السُّبل الّتى تفرّقت بهم واتّباع سبيله جلّ وعلا الّتى ضوؤها القرآن الكريم ونورها سنّة المصطفى ﷺ المبيّنة للقرآن الكريم .

الآيــة رقــم (٢١٠)

قال تعالى : ﴿ هل يَنْظُرون إلاّ أن يأتيهم الله فى ظُلَلٍ من الغمام والملائكةُ وقُضِى الأمر . وإلى الله تُرْجَعُ الأمور ﴾ .

هل ينظرون : هل هنا للنّفْى . المعنى ما ينظرون ، ولذلك دخلت إلاّ . وكونها بمعنى النّفى إذ جاء بعدها إلاّ كثير الاستعمال فى القرآن وفى كلام العرب . قال تعالى : وهل نجازى إلاّ الكفور . فهل يُهْلَكُ إلاّ القوم الفاسقون . وقال الشّاعر[2] :

---

(١) سورة الانعام ٦٥

(٢) القائل هو دريد بن الصّمّة انظر الأغانى (دار الكتب) ٨/١٠ و ٩ وغزيّة كغنيّة . جاء فى القاموس « غزا » وسمّوْاغازية وغزيّة كغَنيّة وكسُميّة وغزيّة رهط الشّاعر .

وهل أنا إلاّ مِنْ غَرِيَّـة إنْ غَوَتْ غَـوَيْتُ وإن تـرشُدْ غَزِيَّـةُ أَرْشُدِ(١)

ينظرون : ينظرون هنا معناه ينتظرون . وتقول العرب : نظرت فلاناً أنتظره . وهو لا يتعدّى لواحدٍ بنفسه إلاّ بحرف جرّ . قال امرؤ القيس :

فإنّكما إن تنظرانى ساعةً من الدّهـر تنفعنـى لـدى أمّ جندب(٢)

والنّظر الانتظار(٣) .

فى ظلل : جمع ظُلّة فى التّكسير كظُلمة وظُلَم وفى التّسليم ظُللات(٤) والظلّة تجمع فى التّكسير ظُلل وظِلال كما تجمع الخُلّة خُلل وخِلال والجُلّة جُلل وجِلال(٥) .

والغمام : السّحاب الرقيق الأبيض ، سمّى بذلك لأنه يغمّ أى يستر(٦) .

حذّرت الآية الكريمة السّابقة النّاس بعامّة ، الّذى آمنوا بخاصّة بأنّهم إن زلّوا فانحرفوا عن الطّريق فليعلموا أنّ الله تعالى عزيزٌ فى ملكه لا يعجزه شىءٌ فى الأرض ولا فى السّماء إن شاء عذّبهم فى الدّنيا والآخرة معًا أو فى الآخرة وحدها ، حكيمٌ فى صنعه خلق كلّ شىءٍ فقدّره تقديرا وما ترى فى خلق الرّحمن من تفاوت . وهذه الآية الكريمة التالية تتحدّث عن الّذين هجروا الصّراط المستقيم ، وآثروا طريق الضّلالة والغواية ، واستمرءوا ارتكاب الذّنوب والآثام ، وأصرّوا على العناد والاستكبار ، وفرحوا بالحياة الدّنيا الّتى أزّينت لهم وأخذت زخرفها ولان جانبها وسلس قيادها ، ونسوا الله سبحانه وتعالى فأنساهم أنفسهم ، الآية الكريمة تتحدّث فى هيئة الاستفهام الإنكارىّ النّاعى على القوم سوء تقديرهم وتدبيرهم وظنّهم إمهال الله تعالى لهم إمهالاً هل ينظرون وهم الّذين ستتصرّم آجالهم ، وهل ينتظرون وهم الّذين سوف يبعثون من قبورهم من أجل الحساب فالجزاء يوم القيامة إلاّ أن يأتيهم الله تعالى . وهل ينتظرون إلاّ أن تأتيهم ملائكة العذاب كى تذيقهم بأمر الله تعالى ما يستحقون من عذاب وشقاء ؟

---

(١) البحر المحيط ٢/١٢٤ ولتصحّح فى البحر المحيط الآية الأخيرة من سورة الأحقاف .

(٢) البحر المحيط ٢/١٢٤

(٣) تفسير القرطبى ص ٨٣٣

(٤) تفسير القرطبىّ ص ٨٣٣

(٥) انظر تفسير الطّبرىّ ٢/١٩٠

(٦) تفسير القرطبى ص ٨٤٣

إنّ الكافرين الّذين تمرّ حياتهم مرّ السّحاب وهم لاهون غافلون وفى جنب الله تعالى مفرّطون . وهنالك سوف يقضى الأمر بعذابهم ودخولهم جهنّم ، وإلى الله سبحانه وتعالى فى ذلك اليوم المجموع له النّاس المشهود ترجع كلّ الأمور وقد قال تعالى[١] : ﴿ لِمَنِ المُلْكُ اليوم ؟ لله الواحد القهّار ﴾ وقال تعالى[٢] : ﴿ هل ينظرون إلاّ أن تأتيهم الملائكة أو يأتى أمر ربّك . كذلك فَعَلَ الّذين من قبلهم وما ظَلَمَهُمُ الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ وقال تعالى[٣] : ﴿ وهو الّذى يتوفّاكم باللّيل ويعلم ما جرحتم بالنّهار ثمّ يبعثكم فيه ليُقْضَى أجلٌ مسمًّى ثمّ إليه مرجعكم ثمّ ينبّئكم بما كنتم تعملون . وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حَفَظَةً حتّى إذا جاء أحدَكم الموتُ توفّته رُسُلُنا وهم لا يُفرِّطون . ثمّ رُدّوا إلى اللهِ مولاهم الحقّ . ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ﴾ وقال تعالى[٤] : ﴿ أصحاب الجنّة يومئذٍ خيرٌ مستَقَرّاً وأحسن مقيلا . ويوم تَشَقَّقُ السّماءُ بالغَمامِ ونُزِّل الملائكة تنزيلا . المُلْكُ يومئذٍ الحق للرّحمٰن ، وكان يوماً على الكافرين عسيراً ﴾ .

وقد فطن بعضهم إلى شدّة حسرة الكافرين وخيبة أملهم الأليمة حينما لا يأتيهم شيءٌ من الرّحمة وهم أشدّ خلق الله تعالى حاجةً إليها من جهة السّحاب الّذى اعتادوا فى الدّنيا أن تأتيهم رحمة الله تعالى من طريقه ، بل يأتيهم عكس ذلك ، العذاب الأليم . يقول الزّمخشرىّ[٥] : « فإن قلت : لِمَ يأتيهم العذاب فى الغمام ؟ قلت : لأنّ الغمام مظنّة الرّحمة . فإذا نزل منه العذاب كان الأمر أفظع وأهول ، لأنّ الشّرّ إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أغمّ ، كما أنّ الخير إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أسرّ ، فكيف إذا جاء الشّرّ من حيث يحتسب الخير ؟ ولذلك كانت الصّاعقة من العذاب المستفظع لمجيئها من حيث يتوقّع الغيث » .

وإنّما جاء فى صيغة الماضى القول : « وقضى الأمر » بشأن ما سوف يقع يوم القيامة من حسابٍ وجزاء لتحقّق وقوعه فكأنّ ما سوف يقع قد وقع وانقضى ومضى .

---

(١) سورة غافر ١٦
(٢) سورة النّحل ٢٣
(٣) سورة الأنعام ٦٠ — ٦٢
(٤) سورة الفرقان ٢٤ — ٢٦
(٥) الكشّاف ٢٦٨/١

وكأنّ الآية الكريمة تريد أن تقول : إنّ الّذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله تعالى وأصرّوا على كفرهم كأنّهم : « لا ينتظرون إلاّ آيةً عظيمةً تلجئهم إلى الدّخول فى الإسلام »[١] ولكنّ هذه الآية العظيمة من إتيان أمر الله تعالى وحكمه والملائكة إنّما تكون يوم القيامة حينما لا ينفع نفساً إيمانُها لم تكن آمَنَتْ من قَبْلُ أو كسبت فى إيمانها خيراً فثمّة جزاءٌ ولا عمل ، أمّا فى هذه الحياة الدّنيا حياة العمل من أجل الحصاد وجنى الثّمار فى الآخرة فإنّ أمام الإنسانيّة وبين يديها معجزة الإسلام الكبرى الخالدة ، القرآن الكريم الّذى أمر الله سبحانه وتعالى حبيبه المصطفى ﷺ أن يجاهد به الكفّار جهاداً كبيراً ، وإن كان عليه الصّلاة والسّلام فى الميدان وحده . قال تعالى[٢] : ﴿ فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيرا ﴾ .

الآيــة رقــم (٢١١)

قال تعالى : ﴿ سل بنى إسرائيل كم آتيناهم من آيةٍ بيّنة . ومن يبدّل نعمة الله من بعد ما جاءته فإنّ الله شديد العقاب ﴾ .

سَلْ : يا محمّد[٣] والخطّاب فى اللّفظ له ﷺ والمراد أمّته[٤] وسل من السّؤال ، بتخفيف الهمزة ، فلمّا تحرّكت السّين لم يحتج إلى ألف الوصل . إنّ للعرب فى سقوط ألف الوصل فى سل وثبوتها فى واسأل وجهين ، أحدهما حذفها فى أحدهما وثبوتها فى الأخرى وجاء القرآن بهما ، فاتّبع خطّ المصحف فى إثباته للهمزة وإسقاطها ، والوجه الثانى أنّه يختلف إثباتها وإسقاطها باختلاف الكلام المستعمل فيه ، فتحذف الهمزة فى الكلام المبتدأ ، مثل قوله : ﴿ سل بنى إسرائيل ﴾ ، وقوله : ﴿ سلهم أيُّهم بذلك زعيم ﴾ وتثبت فى العطف مثل قوله : ﴿ واسأل القرية ﴾ . ﴿ واسألوا الله من فضله ﴾ . قاله علىّ بن عيسى[٥] .

---

(١) البحر المحيط ١٢٦/٢
(٢) سورة الفرقان ٥٢
(٣) تفسير الطّبرىّ ١٩٣/٢
(٤) البحر المحيط ١٢٦/٢
(٥) تفسير القرطبى ص ٨٣٥

كم آتيناهم : كم فى موضع نصبٍ على أنّها مفعولٌ ثانٍ لآتيناهم على مذهب الجمهور[١] استفهاميّة معلّقة سل عن المفعول الثانى[٢] ومعناها التّقرير لا حقيقة الاستفهام . وقد يخرج الاستفهام عن حقيقته إذا تقدّمه ما يخرجه نحو قولك : سواءٌ عليك أقام زيدٌ أم قعد ، وما أبالى أقام زيدٌ أم قعد ، وقد علمت أزيدٌ منطلقٌ أم عمرٌ ، وما أدرى أقريبٌ أم بعيد ، فكلّ هذا صورته صورة الاستفهام وهو على التّركيب الاستفهامىّ وأحكامه ، وليس على حقيقة الاستفهام[٣] .

ومن يبدّل نعمة الله : نعمة الله آياته وهى أجلّ نعمةٍ من الله لأنّها أسباب الهدى والنّجاة من الضّلالة . وتبديلهم إيّاها أنّ الله أظهرها لتكون أسباب هداهم فجعلوها أسباب ضلالتهم كقوله : فزادتهم رجسًا إلى رجسهم[٤] .

والعقاب : مأخوذٌ من العَقِب كأنّ المعاقب يمشى بالمجازاة له فى آثار عَقِبه . فالعقاب والعقوبة يكونان بعقب الذّنب . وقد عاقبه بذنبه[٥] وسمّى العذاب عقابًا لأنّه يعقب الجرم[٦] .

بيّنت الآية الكريمة السّابقة أنّ الّذين يعرضون عن دعوة الحقّ من بعد ما جاءتهم البيّنات ما ينتظرون إلاّ أن يأتيهم يوم القيامة أمر الله تعالى والملائكة لأنّهم حينما يعرضون عن آى الذكر الحكيم أنصع الآيات بياناً فبأىّ حديثٍ بعده يؤمنون ؟ وتتحوّل الآية الكريمة التّالية إلى الحديث عن فريقٍ آخر أعرض عن دعوة الحقّ ، وتأمر المصطفى ﷺ أن يسأل بنى إسرائيل فى هيئة التّقرير والتّبكيت والتّقريع والتّأنيب لأنّ السّؤال عن معلومٍ لهم وليس عن مجهول : ﴿ كم آتيناهم من آية بيّنة ﴾ ؟ إنّ الخطاب وإن كان متّجهاً إليه ﷺ : ﴿ سل بنى إسرائيل ﴾ فإنّ المراد أمّته عليه الصّلاة والسّلام ، وإنّ السّؤال إذا كان منصبًّا أساسًا على بنى إسرائيل المعاصرين للمصطفى ﷺ الّذين دعاهم عليه

---

(١) البحر المحيط ١٢٦/٢ وتفسير القرطبىّ ص ٨٣٥

(٢) الجلالين

(٣) البحر المحيط ١٢٧/٢

(٤) الكشّاف ٢٦٨/١

(٥) تفسير القرطبىّ ص ٨٣٦

(٦) البحر المحيط ١٢٨/٢

الصّلاة والسّلام إلى دعوة الحقّ فأعرضوا ، فإنّ السّؤال وراء ذلك منصبٌّ على بنى إسرائيل فى كلّ زمانٍ ومكان بسبب الإعراض عن دعوة الحقّ ذاته .

إنّ الآية الكريمة تأمر المصطفى ﷺ أن يسأل بنى إسرائيل الّذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله تعالى وبدّلوا كُفْراً نعمة الله تعالى الكبرى على الإنسانيّة بإرسال خاتم الأنبياء والمرسلين وإنزال كبرى آيات دين الإسلام البيّنات ، تلك النّعمة الّتى كانت ستهديهم إلى صراطٍ مستقيم ، صراط الله الّذى له ما فى السّماوات وما فى الأرض ، إلى دين الإسلام وإلى جنّات الله تعالى ورضوانه لو أنّهُمْ تخلّوا عن العناد والاستكبار ولكنّهم لم يفعلوا فبدّل القوم نعمة الله تعالى بالإسلام كفراً وأحلّوا قومهم دار البوار ، إنّ الآية الكريمة تأمر المصطفى ﷺ أن يسأل هؤلاء الكافرين الّذين يسيرون على نهج أسلافهم على عهد موسى عليه السّلام : كم آتيناهم من آيةٍ بيّنة ؟ والمعنى : أكثر الآيات البيّنات والحجج الواضحات الّتى آتاها الله سبحانه وتعالى موسى عليه السّلام ، سواءٌ فى ذلك الآيات البيّنات الّتى آتاها الله سبحانه وتعالى آل فرعون وهى تسع العصا واليد[١] والسّنون ونقصٌ من الثّمرات[٢] والطّوفان والجراد والقمّل والضّفادع والدّم[٣] والآيات البيّنات الّتى آتاها الله سبحانه وتعالى بنى إسرائيل وفى مقدّمتها التّوراة ، ومن كبراها فلق البحر وهى آيةٌ لكلٍّ من بنى إسرائيل وآل فرعون إلى غير ذلك من آياتٍ بيّنات تحدّث القرآن الكريم عنها فى أكثر من موضع ومنها سورة البقرة كآية انفجار الماء من الحجر[٤] ورفع الطّور[٥] وإحياء القتيل[٦] وتظليلهم بالغمام وإنزال المنّ والسّلوى عليهم[٧] إلى غير ذلك من آياتٍ بيّنات .

إنّ هذه الآيات البيّنات الّتى آتاها الله سبحانه وتعالى موسى عليه السّلام وفى مقدمتها التّوراة الّتى فيها هدًى ونور ، من أكبر نعم الله تعالى على بنى إسرائيل ولكنّهم جحدوا

---

(١) الآية ١٠٧ و ١٠٨ من سورة الأعراف
(٢) الآية ١٣٠ من سورة الأعراف
(٣) الآية ١٣٣ من سورة الأعراف
(٤) الآية ٦٠ من سورة البقرة
(٥) الآية ٦٣ من سورة البقرة
(٦) الآية ٧٣ من سورة البقرة
(٧) الآية ٥٧ من سورة البقرة

تلك النّعمة وبدلاً من أن تقودهم إلى الإسلام والإيمان قادتهم إلى الكفر والطّغيان ، وهذا هو معنى تبديل نعمة الله تعالى كفراً بأن تكفر النّعمة ولا تشكر أن تُنْكر ولا تُذْكر ، وفى ضوء نظم الآية الكريمة يصحّ أن يكون التقدير : كم آتيناهم من آيةٍ بيّنةٍ فبدّلوها .

وإذا كان النّصّ على تبديل بنى إسرائيل نعمة الله تعالى كفراً غير مذكور ولكنّه مفهوم من الشّقّ الثّانى من الآية الكريمة ، فإنّ عقابهم بسبب كفرهم مفهومٌ كذلك من هذا الشّقّ الثّانى : ﴿ ومن يبدّل نعمة الله من بعد ما جاءته فإنّ الله شديد العقاب ﴾ وكأنّ الشّقّ الثّانى من الآية مكملٌ للشّقّ الأوّل متمّمٌ بعض معانيه وأبعاده . وإذا كان الشّقّ الأوّل مرتبطاً ببنى إسرائيل بخاصّة فإنّ الشقّ الثّانى يشمل بنى إسرائيل وكلّ من بدّل نعمة الله تعالى كفراً وأحلّ قومه دار البوار وفى مقدّمة هؤلاء كفّار قريش الّذين جاء عنهم قوله تعالى(١) : ﴿ ألم تَرَ إلى الّذين بدّلوا نعمة الله كُفْرًا وأحلّوا قومهم دار البوار . جهنّم يصلونها وبئس القرار . وجعلوا لله أنداداً لِيُضِلّوا عن سبيله . قل تمتّعوا فإنّ مصيركم إلى النّار ﴾ ويلحق بأولئك الكافرين من بدّل نعمة الله تعالى كفراً من المسلمين الّذين يُخْشى أن يكونوا هم المعنيّين بقوله تعالى(٢) : ﴿ وقال الرّسولُ يا ربّ إنّ قومى اتّخذوا هذا القرآن مهجورا ﴾ وحينما يهجر هؤلاء القوم القرآن الكريم يهجرون بطريق الأَوْلى والأحرى سنّة المصطفى ﷺ المبيّنة للقرآن الكريم .

وانظر إلى جملة جاء فى القول : ﴿ من بعد ما جاءته ﴾ والّتى تستعمل فى القرآن الكريم دليلاً على القرب والّتى تفيد هنا مجيء الآيات البيّنات ووصولها بالفعل عباد الله تعالى ، وهذا المعنى هو الّذى يفيده مثل قوله تعالى(٣) : ﴿ وما كنا معذّبين حتّى نبعث رسولا ﴾ إنّ هؤلاء الكافرين نعم الله تعالى الجاحدين آلاءه جلّ وعلا يستحقون شديد العقاب وأليم العذاب : وذلك العقاب الشّديد سيكون يوم القيامة بصفةٍ أكيدة ، ويصحّ أن يسبقه عذاب الله تعالى الأليم فى هذه الحياة الدّنيا ، ومن ثمّ تكون حياة هؤلاء الكافرين غير طيّبةٍ فى الأولى والآخرة بينما حياة المؤمنين الّذين يعملون الصّالحات طيّبةٌ فى الأولى

---

(١) سورة إبراهيم ٢٨ — ٣٠ (٢) سورة الفرقان ٣٠

(٣) سورة الإسراء ١٥

والآخرة وقد قال تعالى[١] ﴿ مَنْ عَمِلَ صالحاً من ذكرٍ أو أنثى وَهُوَ مؤمنٌ فلنحيينّه حياةً طيّبةً ولنجزينّهم أجرهم بأحسنِ ما كانوا يعملون ﴾ وقال تعالى[٢] : ﴿ وإذ تأذّن ربّكم لئن شكرتم لأزيدنّكم ولئن كفرتم إنّ عذابى لشديد ﴾ .

الآيــة رقــم (٢١٢)

قال تعالى : ﴿ زُيِّن للّذين كفروا الحياةُ الدّنيا ويسخرون من الّذين آمنوا والّذين اتّقوا فوقهم يوم القيامة . والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ .

زُيّن : التّزيين التّحسين ، والزّينة ممّا يتحسّن به ويتجمّل . وفعّل من الزّين بمعنى الفعل المجرّد ، والتّضعيف فيه ليس للتّعدية . وكونه بمعنى المجرّد وهو أحد المعانى الّتى جاءت لها فعّل كقولهم : قدّر الله وقدر ، وميّز وماز ، وبشّر وبشر[٣] .

زيّن للّذين كفروا الحياة الدّنيا : فهم يبتغون فيها المكاثرة والمفاخرة ويطلبون فيها الرّياسات والمباهاة ويستكبرون عن اتّباعك يا محمّد والإقرار بما جئت به من عندى تعظّماً منهم على من صدّقك واتّبعك ويسخرون بمن تبعك من أهل الإيمان والتّصديق بك[٤] .

ويسخرون : ويستهزئون[٥] يقال : سخرت منه وسخرت به ، وضحكت منه وضحكت به ، وهزئت منه وبه ، كلّ ذلك يقال ، حكاه الأخفش . والاسم السُّخرية والسُّخْرىّ والسِّخْرىّ، وقرىء بهما قوله تعالى : ﴿ ليتّخذ بعضهم بعضاً سُخْرِيّاً ﴾ ، وقوله : ﴿ فاتّخذتموهم سُخريّا ﴾[٦] .

والّذين اتّقوا فوقهم يوم القيامة ، أى فى الدّرجة ، لأنّهم فى الجنّة والكفّار فى النّار[٧] فازوا بالمقام الأسعد والحظّ الأوفر يوم معادهم فكانوا فوق أولئك فى محشرهم ومنشرهم ومسيرهم ومأواهم فاستقرّوا فى الدّرجات فى أعلى عليّين ،

---

(١) سورة النّحل ٩٧
(٢) سورة إبراهيم ٧
(٣) البحر المحيط ٢/١٠٩
(٤) تفسير الطّبرىّ ٢/١٩٤
(٥) البحر المحيط ٢/١٣٠
(٦) تفسير القرطبى ص ٨٣٧
(٧) تفسير القرطبىّ ص ٨٣٧ وتفسير الطّبرىّ ٢/١٩٤

وخلد أولئك فى الدّركات فى أسفل السّافلين[١]

من يشاء : مفعول يشاء محذوف التّقدير من يشاء أن يرزقه ، دلّ عليه ما قبله[٢] .

بغير حساب : يعنى بالحساب العدّ ، فهو لا يحصى ولا يحصر من كثرته[٣]

حديث الآيات الكريمات الثّلاث السّابقات عن الّذين حادوا عن الصّراط المستقيم ، ومن هؤلاء بنو إسرائيل الّذين بدّلوا نعمة الله تعالى كفراً . وهذه الآية الكريمة التّالية تتحدّث ابتداءً عن الحياة الدّنيا الّتى زيّنت للّذين كفروا ، ففتنوا بها . وكأنّ الآية الكريمة تريد أن تقول إنّ سبب انصراف الّذين كفروا عن الدّين الحقّ ، دين الإسلام الّذى رضيه الله تعالى لعباده ، هو اغترارهم بالحياة الدّنيا الّتى أخذت زخرفها وازّيّنت ، وجَعْلُها غايةَ مناهم ونهايةَ مطافهم .

والآية الكريمة تقرن بين الحياة الدّنيا الّتى ازدانت وبين الّذين كفروا . وحينما نتبيّن أنّ حبّ الشّهوات قد زُيِّنَ للنّاس ، ومن هؤلاء النّاس الكافرون الّذين يجعلون الحياة الدّنيا همّهم الأكبر ، ومن هؤلاء النّاس المؤمنون الّذين لا ينسون حظّهم من الدّنيا بل يأخذون منها بقَدَر ، ويجعلون الحياة الآخرة همّهم الأكبر ، ويريدون بما ينالون من حظّ الدّنيا وشهواتها الخير لدينهم ولأمّتهم ولأنفسهم فهم مثلاً ينالون حظّهم من النّساء لأنّهم يريدون الإعفاف وكثرة الأولاد تحقيقاً لقوله ﷺ : تزوّجوا الودود الولود فإنّى مكاثرٌ بكم الأمم يوم القيامة[٤] وينالون نصيبهم من المال وقد قال أبو بكر الصّدّيق رضى الله عنه حين قدم عليه بالمال : اللّهم إنّا لا نستطيع إلاّ أن نفرح بما زيّنت لنا[٥] لأنّهم يتقوّون بهذا المال ويعدّون به ما استطاعوا من قوّةٍ تنفيذا لأمر الله تعالى ، حينما نتبيّن أنّ حبّ الشّهوات قد زُيِّن للنّاس جميعاً وفيهم المؤمنون والكافرون كما تبيّن ، وقد قال تعالى[٦] : ﴿ زُيِّن لنّاس حبّ الشّهوات من النّساء والبنينَ والقناطيرِ المقنطرة من الذّهب والفضّة والخيل المسوَّمة والأنعام والحرث . ذلك متاع الحياة الدّنيا والله عنده حسن المآب ﴾

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٢٤٩
(٢) البحر المحيط ٢/١٣١
(٣) البحر المحيط ٢/١٣١
(٤) تفسير ابن كثير ١/٣٥١
(٥) تفسير القرطبىّ ص ٨٣٧
(٦) سورة آل عمران ١٤

نستطيع أن نفهم أنّ الآية الكريمة تعنى نوعًا معيّنًا من الزّينة الّتى تتجلّى فيها الحياة الدّنيا للذين كفروا . وهذا النّوع المعيّن من الزّينة يتجاوز القدر المشترك من الزّينة الّتى من أجلها يحبّ النّاس جميعًا شهواتها الّتى نصّت عليها الآية الكريمة ، فقد تبيّنّا أنّ المؤمن لا يجعل من زينة الحياة الدّنيا ولا من حبّ شهواتها هدفاً لحياته فإنّ له هدفاً أسمى من ذلك هو الآخرة الّتى هى خيرٌ من الأولى . وفى الإمكان أن نعيد زينة الحياة الدّنيا الّتى تتجاوز ذلك القدر المشترك إلى ما يسوّله ويزيّنه للكافر كلٌّ من الشّيطان الرّجيم ونفسه الأمّارة بالسّوء . وحينما نسى الكافر الله تعالى أنساه الله تعالى نفسه وزاده عمى بصيرةٍ إلى عماه ونَسأله جلّ وعلا فى الأجل وفسح له فى الأمل ثمّ أخذه عزّ وجلّ أخذ عزيزٍ مقتدر .

بما أنّ الّذين كفروا قد شُغِلوا عن الحقّ فقد شغلوا بالباطل وحينما أعرضوا عن الصّراط المستقيم أقبلوا على سبل الشّرّ المتفرّقة وكان حتمًا عليهم أن يشغلوا أنفسهم ويملأوها . وحينما لا يكون ثمّة حقٌّ فثمّة باطل ، وحينما لا يكون ثمّة خيرٌ فثمّة شرّ . ولأجل هذا أقبل الّذين كفروا على الحياة الدّنيا الّتى جعلوها منتهى همهم وغاية مطلبهم فشغلوا بشهواتها وامتلأت نفوسهم الأمّارة بالسّوء بحبّها ، وسخّروا ذكاءهم وعبقريّتهم من أجل تنمية زينة الحياة الدّنيا واتّساع ميادين الزّينة وامتداد آفاقها ، وركبوا فى سبيل ذلك كلّ ذلولٍ وصعب ، وحينما كان زمامهم فى أيدى أنفسهم الأمّارة بالسّوء سهل على الشّيطان الرّجيم قيادهم ، والانزلاق بهم فى مهاوى الرّدى وفى دركات الضّلال ، وكلّما تضلّعوا من مرتعٍ وخيم ملّوه وسئموا منه وسوّلت لهم نفسهم الأمّارة بالسّوء بتضليلٍ من الشّيطان الرّجيم ارتياد مرتعٍ آخر أشدّ وخامَةً منه ، وإن لم يكن ذلك المرتع الوبيل موجوداً تفتّق الذّكاء الشّيطانىّ عن مرتع آخر وبيل . وهكذا يكون التّحوّل من درك سحيقٍ إلى آخر ، وربّما عاود الحنين إلى مرتعٍ وبيل سابق ، هكذا تتقضّى حياة القوم الأخسرين أعمالاً الّذين يظنّون أنّهم يحسنون صنعًا . وحينما نسى القوم بارئهم جلّ وعلا ، وحينما أصرّ القوم على النّسيان بعد تذكير الله تعالى لهم المرّة بعد المرّة فتح الله سبحانه وتعالى لهم أبواب كلّ شىءٍ من زينة الحياة الدّنيا ونعيمها الزائل وبهرجها الزّائف ، حتّى إذا فرحوا بما آتاهم الله تعالى وظنوا أنّهم إنّما وصلوا إلى ما انتهوا إليه بفضل

ذكائهم وعبقريّاتهم أخذهم الله تعالى أخذ عزيزٍ مقتدر . وليست الأمراض الفتّاكة الّتى وقفت البشريّة أمامها اليوم حائرةً مشدوهة إلاّ مظهراً من مظاهر أخذ الله تعالى النّاس بظلمهم ، وقد قال تعالى(١) : ﴿ وكذلك أخذ ربّك إذا أخذ القرى وهى ظالمة . إنّ أخذه أليمٌ شديد ﴾ وقال تعالى(٢) : ﴿ وما يعلم جنود ربّك إلاّ هو ﴾ وقال تعالى(٣) : ﴿ ولقد أرسلنا إلى أممٍ من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضّرّاء لعلّهم يتضرّعون . فلولا إذ جاءهم بأسُنا تضرّعوا ولكن قَسَتْ قلوبُهُمْ وزيّن لهم الشّيطان ما كانوا يعملون . فلمّا نَسّوا ما ذُكّروا به فتحنا عليهم أبوابَ كلّ شيءٍ حتّى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتةً فإذا هم مُبْلِسون . فقطُع دابر القوم الّذين ظلموا والحمد لله ربّ العالمين ﴾ .

والعجيب فى أمر هؤلاء القوم الضّالّين الّذين نسوا الله تعالى فأنساهم أنفسهم أنّهم يسخرون من الّذين آمنوا ويهزءون بهم لأنّهم مقبلون على الله تعالى مطبّقون لتعاليمه الّتى أوحى بها إلى أشرف الأنبياء والمرسلين محمّد بن عبد الله ﷺ منصرفون عن الحياة الدّنيا معرضون عن متعتها الفانية ونعيمها الزّائل . وممّا يزيد من سخرية الكافرين أن يكون المؤمنون محطّ ابتلاء الله تعالى لهم وقد قال تعالى(٤) : ﴿ ولنبلونّكم حتّى نعلم المجاهدين منكم والصّابرين ونبلو أخباركم ﴾ لقد أشارت سورة المطفّفين مثلاً إلى مظهرٍ من مظاهر استهزاء المجرمين بالمؤمنين . قال تعالى(٥) : ﴿ إنّ الّذين أجرموا كانوا من الّذين آمنوا يضحكون . وإذا مرّوا بهم يتغامزون . وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين . وإذا رأوهم قالوا إنّ هؤلاء لضالّون . وما أرسلوا عليهم حافظين . فاليوم الّذين آمنوا من الكفّار يضحكون . على الأرائك ينظرون . هل ثُوّب الكفّار ما كانوا يفعلون ﴾ وحينما يطلب من كفّار مكّة الأثرياء أن ينفقوا ممّا رزقهم الله تعالى وأن يكون لفقراء المؤمنين حظٌّ ممّا ينفقون يقولون مستهزئين : لقد شاءت إرادة الله تعالى أن يكون المؤمنون فقراء فكيف نخالف مشيئة الله تعالى بإعطائهم مالاً أو طعامًا وهم الّذين لو شاء الله تعالى إطعامهم

---

(١) سورة هود ١٠٢
(٢) سورة المدّثر ٣١
(٣) سورة الأنعام ٤٢ ــ ٤٥
(٤) سورة محمّد عليه الصّلاة والسّلام ٣١
(٥) سورة المطفّفين ٢٩ ــ ٣٦

لفعل . إنّهم يقولون ذلك من قبيل الاستهزاء ولا يعطون فقراء المؤمنين شيئاً . وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة من سورة يس[١] ﴿ وإذا قيل لهم أنفقوا ممّا رزقكم الله قال الّذين كفروا للّذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا فى ضلال مبين ﴾ .

وتبيّن الآية الكريمة على الفور أنّ الّذين آمنوا فوق الّذين كفروا يوم القيامة . والملاحظ أنّ الآية الكريمة لا تقف عند مجرّد تقرير منزلة المؤمنين الرّفيعة يوم القيامة إنّما ترشد المؤمنين إلى درجاتٍ أعلى فى طريق الإيمان الصّحيح الّذى يسيرون فيه ، وهى درجاتٌ بحاجةٍ إلى شحذ الهمّة ومضاعفة الجهد وعدم الالتفات إلى سخرية الّذين كفروا الضّالّين عن سبيل الله تعالى : ﴿ والّذين اتّقوا فوقهم يوم القيامة ﴾ فثمّة نصٌّ على درجة التّقوى العالية الرّفيعة ، فعلى المؤمنين أن يجاهدوا فى سبيلها كى يكون ثوابهم فى الآخرة موافقاً لجهادهم ودرجتهم مساويةً لتقواهم . والمعروف أن درجة التّقوى هى الوجه الآخر للإحسان ، والمعروف كذلك أنّ درجة الإحسان ومعناه أن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك تسبقها درجة الإيمان بدرجاته ، ودرجة الإيمان هذه تسبقها درجة الإسلام . بل إنّ بين درجتى الإسلام والإيمان تداخلاً ، فدرجات الإسلام الظّاهرة أركانه الخمسة ، ودرجات الإيمان أركانه السّتّة ، وتفضى هذه الدّرجة إلى درجة الإسلام الباطنة بمعنى الاستسلام لله تعالى والانقياد والخضوع له جلاّ وعلا . ثم تأتى درجة الإحسان . إنّ الآية الكريمة تريد من المسلم لله ربّ العالمين أن يكون كبير الهمّة طموحًا بأن يجاهد فى الله تعالى إلى أن يهديه جلّ وعلا سبله فضلاً منه تعالى ومِنّة ، وقد قال تعالى[٢] : ﴿ والّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا وإنّ الله لمع المحسنين ﴾ .

إن هذه الهداية نوعٌ من فضل الله تعالى ورزقه الّذى يرزق به من يشاء فى هذه الحياة الدّنيا ، فكيف برزق الله تعالى وبفضله فى الجنّة الّتى فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر . إن التّنبيه على فضل الله العميم والتّنويه برزق الله العظيم تختم به الآية الكريمة وتتوّج : ﴿ والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ فعلى المسلمين لله ربّ العالمين أن يتّخذوا من هذه الدّروس القرانيّة نبراساً يستضيئون به فى طريق حياتهم .

---

(١) الآية ٤٧ (٢)سورة العنكبوت ٦٩

وهذه الجزئيّة الأخيرة تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى يرزق من يشاء بغير حساب ، ومن هؤلاء بل فى مقدّمة هؤلاء المتّقون ، والله سبحانه وتعالى يقول[١] : ﴿ فلا تزكّوا أنفسكم هو أعلم بمن اتّقى ﴾ إنّ لله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له الفضل والمنّة أن هدانا لدين الإسلام وما كنّا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، وهو جلّ وعلا الّذى أمرنا بأن نتزوّد للآخرة فإنّ خير الزّاد التّقوى وقوام كلّ ذلك الأعمال الصّالحة الموافقة لما جاء به الشّرع الحكيم والّتى يريد بها صاحبها وجه الله تعالى . إنّه بالرّغم من كلّ تلك الاحتياطات فإنّ على المسلم لله ربّ العالمين أن يكون على وجلٍ وخوفٍ ألاّ يتقبّل الله تعالى منه وقد قال تعالى فى صفات المؤمنين[٢] : ﴿ والّذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وَجلةٌ أنّهم إلى ربّهم راجعون ﴾ إنّ الأمر كلّه لله تعالى . نسأل الله تعالى أن يتفضّل بقبول أعمالنا الصّالحة وألاّ يحرمنا من الأجر إنّه سميعٌ مجيب .

الآيــة رقــم (٢١٣)

قال تعالى : ﴿ كان النّاسُ أمّةً واحدةً فبعث الله النّبيّين مبشّرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحقّ ليحكم بين النّاس فيما اختلفوا فيه . وما اختلف فيه إلاّ الّذين أوتوه من بعدما جاءتهم البيّنات بغيًا بينهم ، فهدى الله الّذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحقّ بإذنه . والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ .

كان النّاس أمّةً واحدة : أمّة مأخوذةٌ من قولهم : أَمَمْتُ كذا ، أى قصدته ، فمعنى أمّة مقصدهم واحد . ويقال للواحد أمّة ، أى مقصده غير مقصد النّاس[٣] وأصل الأمّة الجماعة تجتمع على دينٍ واحد ، ثمّ يكتفى بالخبر عن الأمة من الخبر عن الدّين لدلالتها عليه كما قال جلّ ثناؤه : ﴿ ولو شاء الله لجعلكم أمّةً واحدة ﴾ ، يراد به أهل دينٍ واحد وملّة واحدة . فوجّه ابن عباسٍ فى تأويله قوله : كان النّاس أمةً واحدةً إلى أن النّاس كانوا

---

(١) سورة النّجم ٣٢ (٢) سورة المؤمنون ٦٠

(٣) تفسير القرطبىّ ٨٣٩

أهل دينٍ واحدٍ حتّى اختلفوا[١] وملّةٍ واحدة[٢] متّفقين على دين الإسلام[٣] .

فبعث الله النّبيّين : يريد : فاختلفوا بأن آمن بعضٌ وكفر بعض فبعث الله النّبيّين[٤] أوّل نبيٍّ بعث نوحٌ عليه السّلام كما قال ابن عبّاس[٥] لحديث الشّفاعة ، فإنّ النّاس يقولون له : أنت أوّل الرُّسل[٦] .

مبشّرين : بثواب من أطاع . ومنذرين : بعقاب من عصى[٧] ونصب مبشّرين ومنذرين على الحال[٨] .

وأنزل معهم الكتاب : اسم جنس بمعنى الكتب[٩] .

ليحكم : مسند إلى الكتاب فى قول الجمهور ، وهو نصب بإضمار أن ، أى لأن يحكم . وهو مجاز مثل : هذا كتابنا ينطق عليكم بالحقّ . وقيل : أى ليحكم كلّ نبىٍّ بكتابه ، وإذا حكم بالكتاب فكأنّما حكم الكتاب.[١٠] واللاّم من « ليحكم » لام العلّة[١١] .

ليحكم بين النّاس فيما اختلفوا فيه : أى ليحكم بين الناس فى الدّين الّذى اختلفوا فيه بعد الاتّفاق[١٢] .

وما اختلف فيه إلاّ الّذين أوتوه : بمعنى أعطوه[١٣] أى إلاّ الّذين أوتوا الكتاب المنزل

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٢/١٩٥ وانظر تفسير القرطبىّ ص ٨٣٨ و ٨٣٩ والبحر المحيط ٢/١٣٥ وتفسير ابن كثير ١/٢٥٠

(٢) تفسير الطّبرىّ ٢/١٩٥ (٣) الكشّاف ١/٢٦٩

(٤) الجلالين والكشّاف ١/٢٦٩

(٥) تفسير الطبرىّ ٢/١٩٤ وتفسير ابن كثير ١/٢٥٠

(٦) تفسير القرطبىّ ص ٨٤٠

(٧) البحر المحيط ٢/١٣٥ وتفسير الطّبرىّ ٢/١٩٦

(٨) تفسير القرطبىّ ص ٨٤٠

(٩) تفسير القرطبىّ ص ٨٤٠ وانظر الكشّاف ١/٢٦٩

(١٠) تفسير القرطبىّ ص ٨٤٠ والبحر المحيط ٢/١٣٦

(١١) البحر المحيط ٢/١٣٦ (١٢) البحر المحيط ٢/١٣٦ والجلالين

(١٣) تفسير القرطبىّ ص ٨٤٠

لإزالة الاختلاف . أى ازدادوا فى الاختلاف لمّا أنزل عليهم الكتاب ، وجعلوا نزول الكتاب سبباً فى شدّة الاختلاف واستحكامه[١] والّذين أوتوه أرباب العلم به والدّراسة له . وخصّهم بالذّكر تنبيهاً منه على شناعة فعلهم وقبيح ما فعلوه من الاختلاف ، ولأنّ غيرهم تَبَعٌ لهم فى الاختلاف فهم أصل الشرّ[٢] .

من بعدما جاءتهم البيّنات : أتى بلفظ مِنْ الدّالّة على ابتداء الغاية منبّهًا على أنّ اختلافهم متّصلٌ بأوّل زمان مجىء البيّنات لم يقع منهم اتّفاقٌ على شىء بعد المجىء ، بل بنفس ما جاءتهم البيّنات اختلفوا لم يتخلّل بينهما فترة[٣] والّذى يظهر أنّ البيّنات هى ما أوضحته الكتب المنزلة على أنبياء الأمم الموجبة الاتّفاق وعدم الاختلاف ، فجعلوا مجىء الآيات سبباً لاختلافهم[٤] .

بغيًا بينهم : نصب على المفعول له ، أى لم يختلفوا إلاّ للبغى[٥] « يقول : بغيًا على الدّنيا وطلب ملكها وزخرفها وزينتها أيّهم يكون له الملك والمهابة فى النّاس ، فبغى بعضهم على بعض وضَرَبَ بعضُهم رقاب بعض »[٦] .

فهدى الله الّذين آمنوا : هدى معناه أرشد[٧] .

من الحقّ : بيانٌ لما اختلفوا فيه . أى فهدى الله الّذين آمنوا للحقّ الّذى اختلف فيه من اختلف[٨] .

بإذنه : معناه بعلمه ، قاله الزّجّاج ، أو بأمره وتوفيقه أو بتمكينه أقوال[٩] .

مناسبة هذه الآية لما قبلها هو أنّ إصرار هؤلاء على كفرهم هو حبّ الدّنيا وأنّ ذلك ليس مختصّاً بهذا الزّمان الّذى بعثت فيه بل هذا أمرٌ كان فى الأزمنة المتقادمة إذ كانوا على

---

(١) الكشّاف ١/٢٦٩ وانظر البحر المحيط ٢/١٣٦

(٢) البحر المحيط ٢/١٣٧ (٣) البحر المحيط ٢/١٣٧

(٤) البحر المحيط ٢/١٣٧ وانظر تفسير الطّبرىّ ٢/١٩٦

(٥) تفسير القرطبىّ ص ٨٤٠ (٦) تفسير الطّبرىّ ٢/١٩٦

(٧) تفسير القرطبىّ ٨٤٠ (٨) الكشّاف ١/٢٧٠

(٩) البحر المحيط ٢/١٣٩ وانظر تفسير القرطبىّ ص ٨٤١ وتفسير الطّبرىّ ٢/١٩٧ وتفسير ابن كثير ١/٢٥٠

على حقٍّ ثمّ اختلفوا بغيًا وحسداً وتنازعاً فى طلب الدّنيا[١] .

يتبيّن من الآيات الكريمات السّابقات أمران مهمّان أحدهما أنّ الاختلاف عادةٌ فى النّاس وطبيعة إلاّ من رحم ربّك وقليلٌ مّا هم وهذا الاختلاف طارىءٌ بسبب التّكالب على حطام الدّنيا وهذا الأمر نتبيّنه من القول : ﴿ فإن زللتم ﴾ ومن القول : ﴿ زُيِّن للّذين كفروا الحياةُ الدّنيا ﴾ والأمر الآخر هو أنّ هذا الاختلاف فى الدّين إنّما كان من بعد ما جاءت أولئك النّاس آيات الله البيّنات وحججه الواضحات ، وهذا الأمر نتبيّنه من القول : ﴿ فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البيّنات ﴾ ومن القول : ﴿ سل بنى إسرائيل كم آتيناهم من آيةٍ بيّنة ﴾ وهذان الأمران تبيّنهما الآية الكريمة التّالية وتوضّحهما .

إن الآية الكريمة تقرّر ابتداءً أنّ النّاس كانوا أساساً أمّةً واحدةً منذ عهد آدم عليه السّلام أبى البشر ، وأنّ دينهم الإسلام ، ونستطيع أن نفهم أنّ الوفاق والوئام كانا من سمات هذه الأمّة المسلمة لله ربّ العالمين لفتراتٍ طوال بسبب عدم وجود البواعث على الاختلاف وبسبب عدم وجود ما يفسد الفطرة البشريّة المتّجهة بعبادتها إلى الله تعالى موجدها من العدم ، وقد جاءت الإشارة إلى هذه الفطرة الّتى فطر النّاس عليها بالاتّجاه الفطرىّ إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له فى قوله تعالى[٢] : ﴿ فأقم وجهك للدّين حنيفاً . فطرة الله الّتى فطر النّاس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدّين القيّم ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون . منيبين إليه واتّقوه وأقيموا الصّلاة ولا تكونوا من المشركين . من الّذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً ، كلّ حزبٍ بما لديهم فرحون ﴾ وبمرور اللّيالى والأيّام والسّنين والأعوام بدأ الاختلاف فى الدّين يتسرّب إلى بنى آدم عليه السّلام بسبب تعارض المصالح الذّاتيّة الدّنيويّة ، وقد اقترن بذلك أنّ الفطرة الإنسانيّة وهى الغاية فى الرّقّة والرّهافة والشّفافية قدزَانَ عليها من غبار السّنين وقذى الشّهوات ما عكّر صفوها ومال بها عن سواء السّبيل وانحرف بها عن الجادّة . وكلّ ذلك إنّما حصل بسبب الاختلاف فى الدّين بباعث اصطدام المصالح الذّاتية الدّنيويّة ، فظهرت حاجة الإنسانية لأن يبعث الله تعالى

---

(١) البحر المحيط ٢/١٣٤

(٢) سورة الرّوم ٣٠ — ٣٢

فيها رسولاً من جنسها يعيدها إلى الجادّة ويهديها إلى سواء الصّراط . قال تعالى : ﴿ كان النّاس أمّةً واحدةً فبعث الله النّبيّين مبشّرين ومنذرين ﴾ وقد جاءت الإشارة إلى الاختلاف فى الآية الكريمة أكثر من مرّة . قال تعالى : ﴿ فبعث الله النّبيّين مبشّرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحقّ ليحكم بين النّاس فيما اختلفوا فيه . وما اختلف فيه إلاّ الّذين أوتوه من بعدما جاءتهم البيّنات بغياً بينهم ، فهدى الله الّذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحقّ بإذنه ﴾ كما جاءت الإشارة إلى الاختلاف فى الآية الكريمة المماثلة من سورة يونس[1] : ﴿ وما كان النّاس إلاّ أمّةً واحدةً فاختلفوا . ولولا كلمةٌ سَبَقَتْ من ربّك لَقُضِىَ بينهم فيما فيه يختلفون ﴾ .

والآية الكريمة تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى قد بعث النّبيّين ، وبما أنّ درجة النّبوّة مرحلةٌ يجب المرور بها إلى مرحلة الرّسالة فكلّ رسولٍ نبىّ ، وليس كلّ نبىٍّ رسولاً ، فذلك معناه أنّ النّصّ على النّبيّين يشمل المرسلين كذلك . وبما أنّ بعث النّبيّين وإرسال المرسلين إنّما يتم بسبب حاجة الإنسانية إلى مشاعل الهداية هؤلاء ، بعد أن اختلف النّاس وتفرّقت بهم السّبل ، فذلك معناه أن مهمّة هؤلاء النّبيّين ليست بالسّهلة ، ولا باليسيرة بل هى الشّاقّة والعسيرة ، لأنّ النّاس آنذاك منحرفون فى مجموعهم عن الصّراط المستقيم . وبناءً على استقامة فطر النّاس أو اعوجاجها يكون تلقّيهم لدعوة أنبياء الله تعالى قبولاً أو رفضاً ، إيماناً أو كفرا . وبما أنّ المؤمنين الطّائعين يستحقون أن يبشّروا بالنّعيم المقيم فى الجنّة الّتى عرضها السّماوات والأرض ، وبما أنّ الكافرين العاصين يستحقّون أن ينذروا بالعذاب المقيم فى النّار الّتى وقودها النّاس والحجارة ، فقد كان النّصّ على بشارة المؤمنين ونذارة الكافرين ﴿ فبعث الله النّبيّين مبشّرين ومنذرين ﴾ وقد تقدّم الحديث عن البشارة تنبيهاً إلى فضل الله تعالى الدّائم على النّبيّين وعلى الّذين اتّبعوهم من المؤمنين المتّقين ، فهاهم أولاء النّبيّون يؤيدهم الله تعالى بتوفيقه ونصره ، وها هم أولاء المؤمنون المتّقون يبشّرهم ربهم برحمةٍ منه ورضوان وجنّاتٍ لهم فيها نعيمٌ مقيم . وها هم أولاء الكافرون

---

(١) الآية ١٩

العاصون ينذرون بقصد أن يتحوّلوا مسلمين لله ربّ العالمين ، وقد قال تعالى[١] : ﴿ حتّى إذا استيأس الرّسل وظنّوا أنّهم قد كذبوا جاءهم نَصرُنا فنجّىَ من نشاء ولا يردّ بأسُنا عن القوم المجرمين ﴾ وقال تعالى[٢] : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . إنّهم لهم المنصورون . وإنّ جندنا لهم الغالبون ﴾ وقال تعالى[٣] : ﴿ إنّا لننصر رسلنا والّذين آمنوا فى الحياة الدّنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ ويعتبر تقديم البشارة وراء ذلك مظهراً من مظاهر احتفاء القرآن الكريم بالمؤمنين الطّائعين المتّقين باعتبارهم الثّمرة اليانعة لجهود النّبيّين المباركة ، ويعتبر تأخير النّذارة مظهراً من مظاهر صنوف التّأخّر الّتى اختارها الكافرون العاصون المعاندون ورضوا بها واطمأنّوا لها .

ومعروفٌ أنّ أوّل المرسلين نوحٌ عليه السّلام ، وأنّ آخرهم محمّد بن عبد الله ﷺ . ومن مظاهر فضل الله سبحانه وتعالى العظيم على النّبيّن وعلى المبعوث إليهم أولئك النّبيّون والمرسلون أنّ الله سبحانه وتعالى قد أوحى بكتبه السّماويّة إلى فريقٍ من أولئك النّبيّين الكرام صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين كى يكون بين يدى أمّة كلّ نبىّ وأمام أعينها المنهج الّذى تسير عليه والهدى الّذى تستنير به والسّبيل الّذى تسلكه متنكّبةً السّبل الّتى تتفرّق بها عن سبيل الحقّ جل وعلا . وقد جاءت فى القرآن الكريم الإشارة إلى أربعةٍ من هذه الكتب السّماوية هى صحف إبراهيم وزبور داود وتوراة موسى وإنجيل عيسى عليهم جميعًا صلوات الله وسلامه . وبما أنّ ربّ العزّة لم يجعل الكتب السّابقة على القرآن الكريم معجزةً فى ذاتها ، إنّما جعل القرآن الكريم آخر الكتب السّماويّة وحده هو الكتاب السّماوى الجامع بين كونه المنهج والمعجزة معاً ، فإنّ ربّ العزّة لم يتكفّل بحفظ أيّ من الكتب السّماويّة السّابقة ، ومن هنا تسرّب إليها التّغيير والتّبديل ، الإضافة والحذف ، التّأويل والتّحريف ، لأنّ الّذين استحفظهم الله تعالى على تلك الكتب من العلماء والأحبار والرّهبان لم يكونوا فى مجموعهم أمناء بل كانوا فى مجموعهم خونةً نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم واشتروا به ثمنًا قليلاً وعبثوا . ومن بين الكتب السّماويّة الأربعة الّتى

---

(١) سورة يوسف ١١٠ (٢) سورة الصّافّات ١٧١ — ١٧٣

(٣) سورة غافر ٥١

ذكرها القرآن الكريم لا نكاد نعرف سوى الاسم عن اثنين منها وهما صحف إبراهيم وزبور داود عليهما الصّلاة والسّلام ، بينما تسرّب التّحريف إلى الكتابين السّماويّين الأخيرين ، التّوراة الّتى أوحاها الله تعالى إلى موسى عليه السّلام والإنجيل الّذى أوحاه الله تعالى إلى عيسى عليه السّلام . لقد جاء عن تكفّل الله تعالى بحفظ القرآن الكريم المصدّق للكتب السّماويّة السّابقة والمهيمن عليها قوله تعالى[١] : ﴿ أنّا نحن نزّلنا الذّكر وإنّا له لحافظون ﴾ وجاء عن تثبيت الله تعالى القرآن الكريم فى صدور الّذين آتاهم الله تعالى العلم اللّدنّى قوله تعالى[٢] : ﴿ وكذلك أنزلنا إليك الكتاب . فالّذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به . ومن هؤلاء من يؤمن به . وما يجحد بآياتنا إلاّ الكافرون . وما كنت تتلو من قبله من كتابٍ ولا تخطّه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون . بل هو آياتٌ بيّناتٌ فى صدور الّذين أوتوا العلم . وما يجحد بآياتنا إلاّ الظّالمون ﴾ .

وانظر إلى هذا التّعبير القرآنىّ : ﴿ وأنزل معهم الكتاب بالحقّ ﴾ الدّالّ على الاحتفاء بالمبعوثين رحمةً للبشريّة وبالبشريّة . إنّ هؤلاء النّبيّين المبعوثين ينزل الله تعالى معهم الكتب السّماويّة . ومعروفٌ أنّ النّبيّين مصطفَوْن من بين البشر الّذين يمشون على الأرض ، ومعروفٌ أنّ مصدر الكتب السّماويّة السّماء . وإنّ مجىء جملة « أنزل » ومجىء الظّرف « مع » الدّالّ على المصاحبة يفهم منهما من ناحيةٍ مصدر الإيحاء إلى هؤلاء المصطفين الأخيار ، إنّه السّماء . ويفهم منهما من ناحيةٍ أخرى فضل الله تعالى على النّبيّين حينما يؤيّد الإيحاء بالنّبوّة إليهم ويزامنه إنزال الكتب السّماويّة ، وفضل الله تعالى على المبعوث إليهم حينما يجدون وحى الله تعالى بين أيديهم وأمام أعينهم يتلونه ويتأمّلونه ويدرسونه ويهتدون بهديه ويستنيرون بنوره.

وتنص الآية الكريمة على الحقّ الّذى تنزل به الكتب السّماويّة كلّها : ﴿ وأنزل معهم الكتاب بالحقّ ﴾ وإنّ النّزول بالحقّ من سمات كلّ الكتب السّماويّة لأنّها موحًى بها كلّها من الحقّ جلّ وعلا ، وقد جاء فى حقّ القرآن الكريم قوله تعالى[٣] : ﴿ وبالحق أنزلناه

---

(١) سورة الحجر ٩

(٢) سورة العنكبوت ٤٧ — ٤٩

(٣) سورة الإسراء ١٠٥

وبالحق نزل ﴾ .

ولمّا كانت إزالة الاختلاف بين النّاس فى الدّين السّبب الّذى من أجله أنزل الله الكتب السّماويّة على النّبيّين باعتبار هذه الكتب أطول آيات النّبيّين عمرا وأبعدها أثراً فقد كان فى الآية الكريمة نصٌّ على هذا السّبب وتعيينٌ لهذا الهدف : ﴿ وأنزل معهم الكتاب بالحقّ ليحكم بين النّاس فيما اختلفوا فيه ﴾ . إن الاختلاف فى أمر الدّين بين ذرّيّة آدم عليه السّلام مثلاً هو السّبب الّذى من أجله أرسل الله تعالى نوحاً عليه السّلام . وإنّ مهمّة هؤلاء النّبيّين أن يجمعوا أولئك النّاس على الحقّ وأن يزيلوا أسباب الاختلاف بينهم ، وإنّ للكتب السّماويّة كبير الأثر فى سبيل هذه الغاية السّامية ، فى أثناء حياة أولئك النّبيين أو بعد مماتهم . وها هى ذى الآية الكريمة تنصّ على وجوب تحكيم الأمّة كتاب الله تعالى بينهم فيما اختلفوا فيه . ومعروفٌ أنّ دين الإسلام الّذى بعث الله تعالى به محمّد بن عبد الله ﷺ خاتم النّبيّين ناسخٌ للدّيانات قبله وأنّ القرآن الكريم مهيمنٌ على الكتب السّماويّة كلّها . وإنّ النّصّ على العلّة من إنزال الكتب السّماويّة وهى الحكم بين النّاس فيما اختلفوا فيه تنبيهٌ على المحذوف فى القول : ﴿ كان الناس أمةً واحدة ﴾ إذ المعنى : كان النّاس أمّةً واحدة فاختلفوا فى الدّين ، على نحو ما تبيّن .

والعجيب فى أمر النّاس المختلفين الّذين أنزل الله كتبه السّماويّة من أجل إزالة سبب اختلافهم أنّهم نقلوا هذا الاختلاف فيما بينهم من أمور الدّين إلى الاختلاف فى الكتاب ذاته . ومتى حدث منهم ذلك الاختلاف ؟ فوراً من بعد نزول ذلك الكتاب وحالاً من بعد مجيء آيات الله تعالى البيّنات وحججه الواضحات إليهم . ويلاحظ مجيء جملة جاء فى القول : ﴿ من بعد ما جاءتهم البيّنات ﴾ والمعروف أنّ جملة ﴿ جاء ﴾ لا تستعمل فى القرآن الكريم إلاّ دليلاً على القرب وعلى الوصول والانتهاء الفعلىّ .

وتعيّن الآية الكريمة الباعث على ذلك الاختلاف فى الكتاب رغم كونه آياتٍ بيّنات ، ورغم قرب عهده بالسّماء ، إنّ هذا الباعث على الاختلاف هو البغى بين النّاس وظلم بعضهم بعضاً وطغيان بعضهم على بعض وعراكهم المستميت من أجل حطام الدّنيا الفانى ونعيمها الزّائل وبهرجها الزّائف وزينتها الحائلة ، وبسبب التّفاخر والتّكاثر فى الأموال

والأولاد : ﴿ وما اختلف فيه إلاّ الّذين أوتوه من بعدما جاءتهم البيّنات بغياً بينهم ﴾ لقد حصل كلّ ذلك الاختلاف والتّقاتل والتّناحر من أجل البغى الّذى اتّسم به بعضهم على بعض . وما أقرب ما بين نزول الكتاب والاختلاف فيه بغيًا وعدواناً ، وما أقصر الزّمن بين تلقّى الوحى والاختلاف فيه . وانظر إلى هذا الاستثناء المفرّغ فى القول : ﴿ وما اختلف فيه إلاّ الّذين أوتوه ﴾ إنّ العجب لا يكاد ينتهى من أحوال هؤلاء المختلفين لأنّ الكتاب السّماوىّ إنّما أنزله الله تعالى بسبب إزالة الاختلاف بينهم وها هم أولاء يختلفون فى هذا الكتاب ــ الّذى نزل لإزالة سبب الاختلاف ــ قبل سواهم ، بل دون سواهم ! ما أسرع إعراض القوم عن كتاب الله تعالى وتولّيهم ، وما أسرع إقبالهم على الدّنيا وافتتانهم بها ، وما أعجب وما أعجل تحوّلهم إلى الاختلاف بعد نزول الكتاب الّذى أوحى الله تعالى به لإزالة ذلك الاختلاف ، بل تحوّلهم إلى الاختلاف بسبب ذلك الكتاب الموحى به ، بل تحوّل ذلك الاختلاف بغياً وعدواناً ، ظلماً وطغيانا . وهل يكاد العجب يقف عند حدّ حينما يتبيّن أنّ ذلك البغى والعدوان ، الظّلم والطّغيان كان بين أفراد أولئك النّاس الّذين بعث الله تعالى فيهم نبيّه وأنزل معه كتابه وليس بين أولئك النّاس وبين أناسٍ آخرين ؟

وبما أنّ من بين الّذين اختلفوا فى الكتاب مؤمنين متّقين حريصين على الوصول إلى الحقّ ويجاهدون فى سبيله ، وبما أنّ هذا الاختلاف فى الكتاب فى حقّ أولئك المؤمنين إنّما هو من باب الجدال بقصد الوصول إلى الحقيقة ومن باب اختلاف الرّأى الّذى لا يُفْسدُ للودّ قضيّة ، وليس بقصد العناد والأشر والبطر والتّعالى على عباد الله تعالى والطّغيان ، وبما أنّ هؤلاء المؤمنين مخلصون فى بحثهم الجادّ عن وجه الحقّ فى بعض أمور الدّين الّذين يهمّهم صفاؤه ونقاؤه وقد قال تعالى[1] : ﴿ والّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا وإنّ الله لمع المحسنين ﴾ فقد هدى الله سبحانه وتعالى الّذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحقّ بإذنه وبعلمه جلّ وعلا . وانظر فى القول : ﴿ لما اختلفوا فيه من الحق ﴾ إلى الدّليل على كون هؤلاء الّذين آمنوا إنّما كان اختلافهم بحثاً عن الحقّ والحقيقة ، وقد كافأهم الله تعالى على

---

(١) سورة العنكبوت ٦٩ .

إخلاص نيّاتهم وسلامة مقاصدهم بأن هداهم إلى الحقّ وكشف لهم عن الحقيقة .

وتتوّج الآية الكريمة بجزئيّتها الأخيرة : ﴿ والله يهدى من يشاء إلى صراطٍ مستقيم ﴾ الّتى تقرّر من ناحيةٍ هداية الله سبحانه وتعالى من شاء هدايته إلى صراطٍ مستقيم وطريق قويم ، هو صراط الله الّذى لا إلٰه إلاّ هو ، وتقرّر من ناحيةٍ أخرى أنّ أولئك الّذين هداهم الله تعالى لما اختلفوا فيه من الحقّ بإذنه جلّ وعلا كانوا يبحثون عن الصّراط المستقيم والطّريق القويم ، وقد كانوا بفضل الله تعالى وبمنّه من بين الّذين شاء الله سبحانه وتعالى أن يهديهم إلى صراطه المستقيم كفاء مجاهدتهم فيه جلّ وعلا .

فى صحيح البخارى ومسلم عن عائشة أنّ رسول الله ﷺ كان إذا قام من اللّيل يصلّى يقول : اللّٰهمّ ربّ جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السّماوات والأرض عالم الغيب والشّهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما اخْتُلِف فيه من الحقّ بإذنك إنّك تهدى من تشاء إلى صراطٍ مستقيم . وفى الدّعاء المأثور : اللّٰهمّ أرنا الحق حقاً وارزقنا اتّباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه ، ولا تجعله ملتبساً علينا فنضلّ ، واجعلنا للمتّقين إماما[١] .

الآيــة رقــم (٢١٤)

قال تعالى : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنّة ولمّا يأتكم مَثَلُ الّذين خلوا من قبلكم مسّتهم البأساء والضّرّاء وزُلْزِلوا حتّى يقول الرّسولُ والّذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إنّ نصر الله قريب ﴾ .

أم حسبتم : أم هنا منقطعة مقدّرة ببل والهمزة فتتضمّن إضراباً وهو انتقالٌ من كلامٍ إلى كلام ، ويدلّ على استفهام ولكنّه استفهام تقرير[٢] والتّقدير : بل أحسبتم[٣] .

حسبتم : معناه ظننتم[٤] حسب بكسر السّين يحسب بفتحها فى المضارع

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٢٥٠

(٢) البحر المحيط ٢/١٣٩ وانظر تفسير القرطبىّ ص ٨٤٢

(٣) الجلالين

(٤) تفسير القرطبىّ ص ٨٤١

وكسرها ، من أخوات ظنّ فى طلبها اسمين هما فى مشهور قول النّحاة مبتدأ وخبر[١] ومفعولا حسبتم ، سدّت مسدّهما على مذهب سيبويه[٢] .

ولمّا يأتكم : لمّا الجازمة حرف[٣] بمعنى لم[٤] ولمّا فيها معنى التّوقّع ، وهى فى النّفى نظيرة قد فى الإثبات . والمعنى أنّ إتيان ذلك متوقّعٌ منتظر[٥] .

مثل الّذين خلوا من قبلكم : مثل ، معناه شبه ، أى و لم تمتحنوا بمثل ما امتحن به من كان قبلكم فتصبروا كما صبروا[٦] ويستعار المثل بمعنى الشّبه لحالٍ غريبةٍ أو قضيّة عجيبة لها شأن[٧] وعليه يكون معنى : مثل الّذين خلوا ، حالهم الّتى هى مثلٌ فى الشّدّة[٨] .

مستّهم : المسّ هنا معناه الإصابة ، وهو حقيقةٌ فى المسّ باليد فهو هنا مجاز[٩] .

البأساء : شدّة الفقر[١٠] وشدّة الحاجة والفاقة[١١] .

والضّرّاء : المرض[١٢] والسّقم[١٣] والعلل والأوصاب[١٤] .

وزلزلوا : أزعجوا بأنواع البلاء[١٥] إزعاجاً شديداً شبيهاً بالزّلزلة بما أصابهم من الأهوال والأفزاع[١٦] والزّلزلة شدّة التّحريك ، تكون فى الأشخاص وفى الأحوال ، يقال : زلزل الله الأرض زَلْزلة وزِلزالاً بالكسر فتزلزلت إذا تحرّكت واضطربت . والزّلزال بالفتح الاسم ، والزّلازل الشّدائد[١٧] .

الرّسول : اسم جِنسْ[١٨] .

متىّ نصر الله : متى سؤالٌ عن الوقت[١٩] .

---

(١) البحر المحيط ٢/١٣٤

(٢) البحر المحيط ٢/١٤٠ وتفسير القرطبىّ ص ٨٤٢

(٣) البحر المحيط ٢/١٣٤

(٤) تفسير القرطبى ص ٨٤٢

(٥) الكشّاف ١/٢٧٠

(٦) تفسير القرطبى ص ٨٤٢

(٧) البحر المحيط ٢/١٤٠

(٨) الكشّاف ١/٢٧٠

(٩) البحر المحيط ٢/١٤٠

(١٠) الجلالين وتفسير ابن كثير ١/٢٥١

(١١) تفسير الطّبرىّ ٢/١٩٨

(١٢) الجـلالين

(١٣) تفسير ابن كثير ١/٢٥١

(١٤) تفسير الطّبرىّ ٢/١٩٨

(١٥) الجـلالين

(١٦) الكشّاف ١/٢٧٠

(١٧) تفسير القرطبى ص ٨٤٢

(١٨) تفسير القرطبى ص ٨٤٣

(١٩) البحر لمحيط ٢/١٤٠

ألا إنّ نصر الله قريب : قريب لا تثنّيه العرب ولا تجمعه ولا تؤنّثه فى هذا المعنى ، قال الله عزّ وجلّ : إنّ رحمة الله قريبٌ من المحسنين . فإن قلت : فلانٌ قريبٌ لى ثنّيت وجمعت فقلت : قريبون وأقرباء وقُرَباء[١] ولمّا كان السّؤال بمتى يشير إلى استعلام القرب تضمّن الجواب القُرْب[٢] .

سبب النّزول:

قال قتادة والسّدّىّ وأكثر المفسّرين نزلت هذه الآية فى غزوة الخندق حين أصاب المسلمين ما أصابهم من الجَهْد والشّدّة والحرّ والبرد وسوء العيش وأنواع الشّدائد ، وكان كما قال الله تعالى : ﴿ وبلغت القلوب الحناجر ﴾ . وقيل : نزلت فى حرب أحد . نظيرها فى آل عمران : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنّة ولمّا يعلم الله الّذين جاهدوا منكم ويعلم الصّابرين ﴾ . وقالت فرقة : نزلت الآية تسليةً للمهاجرين حين تركوا ديارهم وأموالهم بأيدى المشركين وآثروا رضا الله ورسوله وأظهرت اليهود العداوة لرسول الله ﷺ وأسرّ قومٌ من الأغنياء النّفاق ، فأنزل الله تطييباً لقلوبهم : أم حسبتم[٣]

قررت الآية الكريمة السّابقة أنّ الله يهدى من يشاء إلى صراطٍ مستقيم ، وقد جاء فى آية كريمةٍ أخرى[٤] قوله تعالى : ﴿ والّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا وإنّ الله لمع المحسنين ﴾ وذلك معناه أنّ ثمّة جهاداً من قِبَل الّذين آمنوا الّذين هداهم الله تعالى لما كان فيه الاختلاف من الكتاب بين أتباع الحقّ وأتباع الباطل . وإلى هذا الجهاد وإلى الصّراع بين الحقّ والباطل وإلى التّضحيات الّتى ينبغى أن يقدّمها أصحاب الحقّ ، وإلى ابتلاء الله تعالى ما فى صدور المؤمنين وإلى تمحيصهم تشير هذه الآية الكريمة التّالية . وسواءٌ نزلت الآية الكريمة فى غزوة الأحزاب وقد جاء فى سورة الأحزاب قوله تعالى[٥] : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنودٌ فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيرا . إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسْفَلَ منكم وإذ

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٨٤٤ (٢) البحر المحيط ١٤١/٢

(٣) انظر تفسير القرطبىّ ص ٨٤١ وتفسير الطّبرىّ ١٩٨/٢ والبحر المحيط ١٣٩/٢

(٤) سورة العنكبوت ٦٩ (٥) سورة الأحزاب ٩ — ١١

زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنّون بالله الظّنونا . هنالك ابتُلى المؤمنون وزلزلوا زِلْزالاً شديداً ﴾ أو نزلت الآية الكريمة فى غزوة أحد وقد جاء فى سورة آل عمران قوله تعالى[١] : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنّة ولمّا يَعْلَمِ الله الّذين جاهدوا منكم ويَعْلَمَ الصّابرين ﴾ أو كان نزول الآية الكريمة فى غير هاتين الغزوتين وقد جاء فى سورة العنكبوت مثلاً قوله تعالى[٢] : ﴿ الم ، أَحَسِب النّاس أن يُتْركوا أن يقولوا آمنّا وهم لا يُفْتَنون . ولقد فتنّا الّذين من قبلهم فليعلمنّ الله الّذين صدقوا وليعلمنّ الكاذبين ﴾ فالّذى لا شكّ فيه أنّ جهاد المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ للكافرين كان جهاداً كبيراً وكان ابتلاء الله سبحانه وتعالى لهم مستمرّاً ، ومن المعروف وراء ذلك أنّ العبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب وبناءً على ذلك تخاطب الآية الكريمة المؤمنين المجاهدين فى سبيل الله تعالى فى كلّ زمانٍ ومكان .

وإنّ هؤلاء المؤمنين المتّقين إنّما يجاهدون فى سبيل الله تعالى ابتغاء مرضاته جلّ وعلا وطمعاً فى جنّته الّتى عرضها السّماوات والأرض ، والآية الكريمة تخاطب هؤلاء المؤمنين المتّقين المجاهدين فى سبيله جلّ وعلا بقصد حثّهم على مواصلة الجهاد وتثبيت أفئدتهم قائلةً لهم : أم حسبتم أيّها المؤمنون المجاهدون فى سبيلى ، يا من ابتليتهم بالظّمأ والنّصب والمخمصة فى سبيلى ، واختبرتهم فى أموالهم وبالسّفر وبمسّ القرح وبالقتل ، أحسبتم أن تدخلوا الجنّة الّتى عرضها السّماوات والأرض والّتى فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر ولمّا يأتكم عن طريق الوحى الّذى أوحيته إلى حبيبى ورسولى محمّد ﷺ مَثَلُ الّذين خلوا من قبلكم ونبأ الّذين جاهدوا فى سبيلى مع أنبيائى السّابقين ، وما ابتليتهم به فى جهادهم أعداء الله تعالى وخصصتهم به من امتحان فى سبيل دعوة الحقّ دين الإسلام الّذى بعثت به أنبيائى حتّى إنّ القرح الّذى مسّهم لعمق غوره وشدّة إيلامه وبعد أثره وانتشار خبره لينزّل لسيرورته ودويّه منزلة المَثَل الّذى يُضْرب ، يتمثّل به ويُذْكر ، يستأنس به ويسترشد . لقد صبر أولئك المصطفون من رسلى ، والمختارون من عبادى على كلّ ما أصابهم من بأساء مسّتهم فى هيئة الفقر المدقع والمرض الشّديد وزلزلة

---

(١) سورة آل عمران ١٤٢ (٢) سورة العنكبوت ١ — ٣

الأعداء لهم الّذين يريدون أن يستأصلوا شأفتهم ويبيدوا أثرهم . لقد صبر أولئك على ذلك الابتلاء لعلمهم أنّ كلّ ما يحدث لهم إنّما هو بإذنى وبعلمى ، وجاهدوا فى سبيلى ، وطال الصّبر حتّى كاد ينفد ، واستمرّ الجهاد حتّى ظنّ أنّه لن يهدأ و القتال حتّى ظنّ أنّه لن يتوقّف ، يحدث كلّ ذلك وإنّ المصطفين من رسلى والمجتبين من عبادى ينتظرون فرجى ويترقّبون نصرى ، وطال الانتظار والتّرقّب حتّى كاد يدبّ إلى المصطفين من رسلى والمجتبين من عبادى شيءٌ من اليأس أن يتحوّل الكفّار مسلمين لله ربّ العالمين والضّيق الّذى هم فيه فرجًا والضّنك الّذى هم فيه نصراً مؤزّرا ، وقد قال تعالى[١] : ﴿ حتى إذا استيأس الرّسل وظنّوا أنّهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فَنُجّى من نشاء ولا يردُّ بأسنا عن القوم المجرمين ﴾ وقال تعالى : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنّة ولمّا يأتكم مثل الّذين خَلَوْا من قبلكم مسّتهم البأساء والضّرّاء وزُلْزِلوا حتى يقول الرّسولُ والّذين آمنوا معه متى نصر الله . ألا إنّ نصر الله قريب ﴾ .

إنّ المطلوب منكم أيّها المؤمنون أن تصبروا كما صبر أولئك المؤمنون وأن تعلموا أنّ نصر الله قريب ، وإنّ لكم أيّها المؤمنون فى المصطفى ﷺ بطل الأبطال أسوةً حسنةً تتأسَّوْن بها وتقتدون فى الصبر والمصابرة والمجاهدة فى سبيل الله تعالى ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . إنّهم لهم المنصورون . وإنّ جندنا لهم الغالبون ﴾[٢] ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أُسْوةٌ حسنةٌ لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا . ولمّا رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ماوعدنا اللهُ ورسولُه وصدق الله ورسوله وما زادهم إلاّ إيماناً وتسليما ﴾[٣] .

جاء فى الحديث الصّحيح عن خَبّاب بن الأَرَتّ قال . قلنا يا رسول الله : ألا تستنصر

---

(١) سورة يوسف ١١٠

(٢) سورة الصّافات ١٧١ ــ ١٧٣

(٣) سورة الأحزاب ٢١ ، ٢٢

لنا ؟ ألا تدعوا الله لنا ؟ فقال : إنّ من كان قبلكم كان أحدهم يوضع المنشار على مفرق رأسه فيخلص إلى قدميه لا يصرفه ذلك عن دينه ، ويمشط بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه لا يصرفه ذلك عن دينه ، ثم قال : والله ليتمّنّ الله هذا الأمر حتّى يسير الرّاكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلاّ الله والذّئب على غنمه ولكنّكم قومٌ تستعجلون[1] .

(١) تفسير ابن كثير ١/٢٥١

رقم الإيداع ٣٥٧٩ / ١٩٩٢
الترقيم الدولى x - 0733 - 11 - 977

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه